صادق بكّة



ردمك: ٧ ـ ١ ـ ٩٩٩ ـ ٩٩٩٦٦ ـ ٩٧٨ ISBN

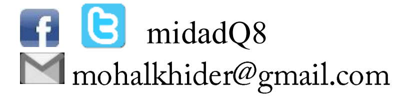
الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م



مَرْكَزُ مِدَادٍ لِلْبُحُوثِ وَالدِّرَاسَات

ص. ب: ١٢٣٦٢ ـ الشامية ٧١٦٥٤ الكويت

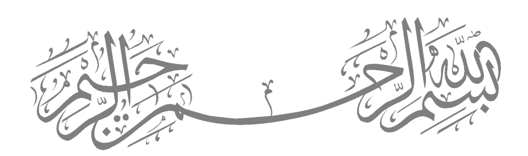


midadQ8
mohalkhider@gmail.com

وجدان العلي

صادقُ بَكَّة

وجدان العلي





المقدمة

الحمد لله الذي منَّ علينا بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشرَّفنا بالانتساب لهذه الأمة التي ابتعثها الله من رقدة الفناء إلى فلق الحياة باصطفاء رحمته وصفوته من خلقه؛ سيدنا رسول الله ﷺ.

فتوهجت بالحياة وماجت بالنور في الصدور والعقول، ونضت عنها ثياب الذل والهوان وأسمال الخرافة والكهانة، ونصبت في ميدان الوجود حضارةً كانت هي الصورة الأمثل لما يمكن أن يبلغه الإنسان في هذا الوجود؛ علمًا وعملًا وقيامًا بالقسط والعدل الذي يسع الناس جميعًا.

وقيامًا ببعض الشكر الذي لا يليق بنا غيره بين يدي هذه النعمة العظمى، التي كست حياتنا معناها، وجعلت لوجودنا قيمة، وبسطت على هذا العالم ضوء الهداية ونورها وروحها؛ كان هذا الكتاب الصغير، الذي يحاول أن يلج معارج النور

والرحمة بخفقات الحب، وحرفه المتوقد بالصدق، وكلماته المتوضئة بكوثر الشوق، بعيدًا عن يابسة الجفاف الذي تقتضيه الأبحاث العلمية، وصخب الحجاج والجدال.

تركت هذا كله بعيدًا عن القلم، غير بعيدٍ عن ضوابطه وقواعده، وأردت أن يكون سيدنا أبو القاسم ﷺ شاخصًا بنفسه وسُنَنِّه وحياته في هذا الكتاب..

فلم أقمه كتابًا في سيرة النبي ﷺ، فما لهذا أردت؛ فإن ذلك يطول جدًا، ولم أستعن بقلم أحد، أو نقل كلامه عن النبي ﷺ، وإنما أتيت إلى حياته ﷺ، ونظرت فيها نظرة الذي يتلمس طريقه للهداية والتعرف إلى الحق، عبر لوحاتٍ معلقة على جدار الأفق من حياة نبينا ﷺ، تصلنا به، وتسمو بقلوبنا إلى مطالعة نفسه الشريفة وشمائله وأخلاقه، التي تقوم وحدها دليلًا على أنه كان أعظم البشر صلوات الله وسلامه عليه، وكل هذا في إيجازٍ يسير يخفُّ على قراء أيامنا، ويدلهم بإشاراته وما فيه على ما وراء ذلك من دلائل نبوته وعظمته ﷺ(١).

(١) لم أُخرِّج الأحاديث تخريجَ أهل الفن، ولكن لم أستشهد إلا بالصحيح أو بما استفاض عند أهل السير. ولم أستكثر من المصادر.. فكل هذا لم يكن مقصودًا في هذا الكتاب.

قبل البدء

ماذا كانت تخبئ عباءة الرمل المتلهبة بناسها وصخورها، ونفوس أهلها الذين تناثروا قبائل متصارعة مجدبةً من نور الرسالات وأضواء الهدايات، إلا ضوءا خافتًا يوشك يبلى في صدور بعض أهل الكتاب من الذين ورثوا الدين العتيق صافيًا من ألواث الشرك وكدر الوثنية ؟!

يوما ما ستصير هذه الحصيرة الساخنة قبلة الضوء، ومحراب الحياة في هذا العالم كلِّه!

تلك دهشة خضراء في هذا المحيط اليابس، كانت!

لقد اجتمع هذا الحشد الهائل من أمشاج النفوس الملوَّنة بعقائد ضاربةٍ بجذورها في آباد العناد، كأنَّ صدر كل واحدٍ منهم صار معبدًا عليه نقوش الآباء العتيقة من الأعراف والتقاليد، وميراث التِّرات[١] وفورة العصبية ؛ وصارت كل هذه الأمشاج

(١) يعني الثارات.

«بنيانًا واحدًا يشُدُّ بعضُه بعضًا»، فيه ما في خصائص البنيان الواحد من الجمال والتماسك والتكامل الذي لا يمحو ذاتية كل عضوٍ فيه وسمته الذي يميزه عن أخيه.

ونبت في أرض جزيرة العرب نفوسٌ لم يزل عالمنا إلى اليوم مدينًا لهم بالفضل في تعريفه معنى «الإنسان»، ومعنى أن يقوم هذا الإنسان بحضارةٍ كانت التجلِّيَ الأسمى للعمران بمعناه الجليل؛ إنسانًا وبنيانًا، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾!

كيف كان ذلك؟! وما الذي أخرج هذه الحواشي الصغيرة التي كانت تعيش كالأوراق الممزقة من بقايا كتاب بالٍ، لتكون هي النص والمعنى والسجِلَّ الخالد للإنسانية؟!

أيكون يسيرًا على لسانٍ أعجمي مُعْرِقٍ في عُجْمته، غارقٍ في التأتأة، مقيدٍ بلعْثمته؛ أن يقوم بين الناس خطيبًا فصيحًا يرتجل شعرًا يُنَاصي(١) بيانَ امرئ القيس أو أبي الطيب، أو يترسَّل بقلمٍ كأنما يقبس من دواة أبي عثمان الجاحظ؟!

إن الأمر أشبه بمريض مُقْعَدٍ عاجزٍ معصوبِ العينين، لم يبق

(١) يعني يُباري.

فيه من الحياة إلا خفقاتٌ فانية، يفجأُ الناسَ بصعوده على قمة جبل إفرست، وهو يحجِلُ(١) بقدميه ويمدُّ عينيه في المدى يطالع الدهشة في وجوه الناس الذين يرقبون هذا المشهد الغريب!

كيف تم ذلك؟!

تلك كانت قصة الإنسانية العظمى، يوم ﵀ ببعثة أعظم إنسان في تاريخ الدنيا، وهو رسول الله ﷺ..

وهذه بين يديك «كلماتٌ» يسيرةٌ كزاد الراكب، تجوز صراط الزمان؛ لتقِفَك على شخصه في رسالته ودعوته وسيرته، فتعلم كيف خرجت جزيرة العرب وقام العالم من تابوت الموتى إلى فلق الحياة بهذا النور الذي أقام «القِيمةَ» في هذه الحياة الدنيا، بعد أن كادت تبلى فيها معالم الإنسان!

وقد جرى الكتاب على سمت الإيجاز، فلم أستكثر فيه من الأدلة ليكون خفيفًا على قارئه، دالًّا بالإشارة العابرة، والعبارة المختصرة على شيءٍ من جمال الرحمة المهداة ﷺ، ونفحةٍ من وهج الصدق الذي كانت تنطق به كل حياته بأفعالها وأقوالها وطبيعتها!

(١) يعني يقفز فرحًا.

هنالك

هنالك في قبة مكة، يجلس هذا الإنسان ومن حوله سكينة نفسه، يتلمس الطريق إلى الملأ الأعلى، بعيدًا عن صخب مكة، وضجيجها، وغبارِ الوثنية الذي تناثر أصنامًا تحاصر البيت الحرام، حصارًا ناطقًا بسلطان الشرك، وهيمنة الخرافة على الحق، وتكاثرها من بين يديه ومن حوله، ووقوفها على بوابته وقوفَ الحارس الذي يرقب ميراث الوثنيةِ في نفوس الداخلين!

مرتفعًا جلس هنالك في عزلته، يطالع الأفق الذي يليق به، اللياليَ ذواتِ العدد، في غار حراء، وقد خلت نفسه من طلب شيءٍ، إلا أن يكون عبدًا للذي فطر السموات والأرض!

وهذا الفراغ الشريف في نفسه ﷺ؛ برهانٌ ناضرٌ لا يخفت على صدقه وخلوص معدِنه من ألواث الجاه وأثقال التطلع إلى الدنيا وزخارفها!

معدنٌ شريفٌ اصطفاه الله ﷻ، فليس تعلَق به ذرة مما يعلق بقلوب الناس!

لقد طُهِّر وغسِل قلبه صغيرًا على يد جبريل، واستُخْرِج منه حظ الشيطان، فما وراء ذلك إلا النور نابعًا من قلبه الشريف ﷺ!

والنور في القلب صاعدٌ يدأب في طلب المعالي، فهو دائمًا في معراج سمو تنطق به الأخلاق والأقوال والأعمال..

فما كان رسول الله ﷺ يطرق مكانًا أو يحل بمنزل، إلا وبين يديه نعت الناس له بالصدق والأمانة، يقولون: جاء الصادق! جاء الأمين!

نعتان يجمعان كل خير، فالصدق ليس حركة لسانٍ وحسبُ، بل هو سمتٌ مُحَلِّقٌ يبسط جناحيْه على حركة حياة الإنسان كلها!

والأمانة ذلك الخلق العاصم من التردي في حمأة الخيانة بصورها كلها، فليس يغدر، ولا يغش، ولا يكذب، ولا يشارك في إثم أو قطيعة رحم.

فما هو إلا الخير المحض، والشرف المحض، والعظمة في تجليها الإنساني السامي!

وسبحان الله!

قد أنطقهم الله تعالى بنعتٍ يجمع خَصْلَتَيْن هما عِماد دعوة أيِّ رسول، فمن كان صادقًا أمينًا، كان مُصَدَّقًا مأمونا في خبره وإرشاده!

ولكنَّ جهنم تصطنع حطبَها الذي حجبته يابسة العناد عن الارتواء من كوثر الهدى ونوره الفياض!

هنالك يجلس جِلسة السراج في محله الأعلى، عبدًا يلوذ بربه، معرضًا مدبرًا عن الذين أعرضوا وأدبروا عن الهدى.. لا تحدثه نفسه بمنصب، ولا يعبر به خاطرٌ من الدنيا، كأن الغار قطعة هاربة من السماء يأوي إليها هذا القلب الذي هرب من الأرض!



رجفة الغار

وفي سبحات التأمل في غار حراء، يفجؤه جبريل ﵇ منتصبًا بين يديه في ظلمة الليل، فيقول له: اقرأ!

تلك الفجأة التي تُدَوِّي في هذا السكون الصامت، وتدع قلبَه يرجُفُ رَجْفًا متتابعًا، تتداعى بين يديه كُلُّ السكينة التي كانت في نفسه، وتهاوتْ أمام هذه الفُجَاءةِ التي حملها هذا الذي ولج عليه سكينتَه وانتصبَ أمامه طالبًا هذا الطلب الغريب!

لقد علم أن الأمر أكبرُ من المعنى العابر في أذهان البشر للقراءة، إنها لقراءةٌ أخرى مفارقةٌ لما عليه الناسُ كُلُّهم.

فيجيب وفي نفسه ما فيها: «ما أنا بقارئ»!

فيضمه المَلَكُ إليه حتى لا يكاد يحسنُ يتنفس، ثم يرسله فيقول له مقالته الأولى نفسها: اقرأ!

فيجيب جوابه الأول لا زيادة فيه ولا نقصان ـ وأنَّى له في

تلك الحال زيادةٌ، وإن الكلمة لتخرج من قلبٍ مرتجفٍ يمور بما فيه من صخب الأسئلة الثقيلة؟! ـ: «ما أنا بقارئ»!

فيأخذه فيضمه إليه حتى لا يكاد يحسن يتنفس ثم يفجؤه بميثاق الجلال وهيبته وعظمته فيقول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

ذلك المشهد الهائل بسطوته، وجلاله، وهيبته الشاهقة في نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لا يُبقي في النفس مكانًا تأوي إليه شبهة شك في أن ذلك هو رسول الله ﷺ، صدقًا!

هذا رجلٌ يرجع مرتجفًا، لا رجفةَ الفرح، بل رجفةَ الخوف والفزع، ويؤوبُ إلى أهله فارغًا من أهازيجِ الاحتفال وصنعة الافتعال.. إنه لأمينٌ تامُّ الأمانة حتى في خفقاته ومشاعره وسره الذي في صدره!

لقد خاف وأبان لزوجه عن هذا الخوف بيانًا عاريًا من أصباغ التجمّل، بيانَ نفسٍ أمينةٍ: لقد خشيت على نفسي!

تلك الكلمة المدهشة ما هي إلا بيانُ نفسٍ صائمةٍ عن «قوت الدعاوى»! نفس عبدٍ أسكتته العبودية عن مشاهدة نفسه، وتذكُّرِ ما هو عليه حالًا ومقالًا وفِعلًا وعملًا، وشَرَفًا: محتِدًا ونَسبًا، ومكانةً لقومه، وبينَ قومه!

طَفِئَ كل هذا أمام ضوء الوحي الباهر في نفس رسول الله ﷺ!

وبَلِيَتْ تلك المشاهدات التي كان يعلمها من نفسه ﷺ وغابتْ في جلال التلقي الأول، فغاب عنه:

مشهدُ شَقِّ صدْرِه صغيرًا وهو في بني سَعْدٍ، ومشهدُ الحَجَرِ الذي كان يُسَلِّم عليه بالنبوة قبل البعثة، ومشهدُ أمه السيدةِ آمنةَ، وهي تُحَدِّث عن نورٍ خرج منها أضاء قصورَ الشام!

وتوارت عن ذاكرته الرؤى التي كان يراها فتأتي متحققةً في ميدان الوجود كفلق الصباح لا كذب فيها، وكل ما كان من إرهاصات سبقتْ وصحبتْ مَقْدِمَه ﷺ.. طُوِيَ كل هذا من نفسه، ولم يحضره قطُّ حينها كأن لم يكنْ!

وهذا عجيب!

إن الصادق لا يتكئ على رؤيته لنفسه، ولا يصحب شواهدَ

ودلائل اصطفائه، ولا يطيق هذا الصدقَ الشاهقَ إلا نفسُ نبي، هو رسولُ الله ﷺ!

هذا المشهد الباذخ هو مفتاح كل شيء في النظر إلى رسول الله ﷺ، بخلوِّهِ من بهرج الادعاء، وزيف التزيد، وبمعنى الإخبات الساجد الخاشع الذي يغشاه كله بتفاصيله كلها..

خشيَ على نفسه أن يكون أصابه مسٌّ من الجنون.

وخشيَ على نفسه أن تتلفَ فيهْلِك.

وخشي على نفسه أن يكون ما يراه وهمًا لا حقيقة له.

وخشي أن لا يقوم بحق الرسالة عليه، ويقصرَ في أداء ما فرَضَهُ ربُّه عليه.

تلك خشيةٌ كبرى تنطق بفراغ نفسه من التطلع إلى هذه المنة العظمى!

وإذا كان القرءان المجيد مفعمًا بمواطن السجدات التي يقوم بها العبد تعظيمًا للمتكلم به سبحانه؛ فإنَّ الله تعالى لا يصطفي لحمل هذا القرءان المجيد إلا أعظمَ قلبٍ تحقق فيه معنى السجود!

لقد قضت هذه الكلمات اليسيرة على كل دعاوى التشكيك في صدق هذا النبي ﷺ!

إن الدعيَّ لا يقول مثل هذا الكلام قط!

الدعيُّ يتلهف إلى الوهمِ يجعله حقيقةً؛ والكذبِ ينسج له رداءً زائفًا من الصدق؛ والضلالِ يزخرفه ويزينه حتى لكأنه من شُعَبِ الهُدى!

بينما شأن الصادق أن يديم التثبت والتحري، ويظل يجمع أسباب الحق إلى الحق؛ ليزداد به قوةً!

وحسْبُ العاقل إنعام النظر في هذا المشهد الأول ما شاء بالبصر المتأني والعقل المتفكر والنفس المتجردة؛ ليئوب من هذا النظر الطويل المتأني شاهدًا شهادة اليقين أن هذا الرجل لا يكون إلا نبيًّا، تمت فيه أجلى شواهد الاصطفاء، ﷺ.

وما أدرت عقلي في حياته ﷺ كلها منذ البدء حتى النَّفَس الأخير بين يدي الرفيق الأعلى؛ إلا وجدته على سمت العبودية لا يفارقها ولو في نصف حرف طرفة عين!

وما تدبرت القرءان حتى وجدته يلح إلحاحًا مستفيضًا على

تلك الحقيقة التي تجعل الإيمان بأن هذا الرجل نبي، والقرءان كلامُ الله؛ بداهةً عقليةً لا يملك إنسانٌ لها دفعًا!

هذا الإلحاح القرءاني الراسخ على أن الله هو الذي علمه، وأنه لم يكن ليعلم لولا أن الله علمه، وأن الله هو الذي تفضل عليه، وهو الذي منَّ عليه بالنبوة والكتاب، وأنه هو الذي يثبته، وأنه هو الذي يحفظه، وأنه هو الذي يؤيده بنصره، وأنه هو الذي جمع القلوب عليه، وهو الذي ألَّف بينها بميثاق الحب والإخاء:

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ..﴾.

﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ..﴾.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ..﴾.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ..﴾.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ..﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ..﴾.

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ..﴾.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ..﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾..

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾..

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾..

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.. إلخ.

تلك الآيات التي لو ذهبت أسرد أمثالها هنا لطال الأمر جدا؛ لأن كل ما في القرءان ينطق بأنه كلام الرب تعالى، وكل ما في القرءان ينطق أن محمداً عبد الله ورسوله!

«إنما أنا عبد»!

منذ اليوم الأول تتجلى هذه الصفة؛ لأنها صفته الأعظم، ومن وراء ذلك اليوم سنوات تمتد طولا وعرضًا في دروب الزمان، لا تزيد هذه الحقيقةَ إلا جِلاءً ورسوخًا بأقواله وأفعاله وأعماله وأحواله ﷺ!

ولو شئت لقلت: إن عبوديته ناطقةٌ بأنه رسول الله، ورسُولِيَّتَه ناطقةٌ بأنه أعظم من تحقق فيه نعتُ العبودية ﷺ!

كلا والله!

لم يكن ما به شيئًا عابرًا سرعان ما ينطفئ، بل آب إلى بيته ﷺ، وقد أثقله ما لقي في الغار، وجعل ينادي أهلَه يقول لها: زملوني زملوني!

وزوجه المباركة رضي الله عنها تمسح عن نفسه الشريفة القلق، وتمدُّ من حوله ظلالًا من السكينة والحنان والرحمة، وتصطفي له أطيبَ ما تطيبُ به النفس إذا أُوصِدَتْ فيها منافذ الهدوء، وصَخِب فيها الخوف والقلقُ، فتَعْرِض له في مرآة الثناء الصافيةِ صفاتٍ خمسًا جمعت الخيرَ كله في رجل واحدٍ، هو هو رسول الله ﷺ!

وقلمي لا يطيق مغادرةَ هذا الموضع حتى يحمل عني ما يعتمل في صدري من أصداء هذا الموقف الجليل، وقد رآني مأخوذًا بجمال هذه النفس الشريفة المصطفاة التي صُنِعتْ على عين الله تعالى، فخرجت مثالًا فذًّا فيه القوةُ أجمل ما تكون،

والرقةُ أعظم ما تكون!

فيتعالى على شدائد الدنيا ولأوائها، ويكون أرق ما يكون عند تلقي الوحي وتدبر آياته!

وقد علمت ذلك منه زوجُه الربانية أمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فجعلت ترصد له معالم شرفه، وسمو معدنه، وتعدد له بالعطف الجميل والتكرار الحنون مناقبه المنيفة التي وسعت الناس كلهم بالرحمة والإحسان، وللتكرار هاهنا وسرد الصفات المنتقاة بالبصيرة المرهفة؛ أثرٌ بالغ في سكب عطر الطمأنينة على نفسه المرهقة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبعات الغار، فقالت له:

كلا والله لا يخزيك الله أبدًا!

وتتابُع الرجفات لا بد وأن يُقابَل بتتابُع سرد نعوت الطمأنينة الماحية لآثار تلك الرجفات.

وفي هذه العبارة من بلاغة الصدق، ومن جمال النفي القاطع، ومن جلال القسم، ومن يقين التوكيد والتأبيد، ومن تكرار اسم الله وإظهاره؛ ما يدل على عناية الله تعالى بنبيه إذ اصطفى له هذه الزوجة الربانية التي تضع الحرف موضعه، وتوغل

في قلب زوجها بالإيمان والحنان معًا، والإيمانُ والحنانُ إذا اجتمعا في قلبِ الزوجة كانت مهادَ سكينةٍ حيًّا في حياة زوجها!

ثم أبانت بعد هذا الإجمال الجميل فقالت:

إنك لتَصِلُ الرحم، وتحمل الكلَّ(١)، وتَقْري الضيفَ(٢)، وتَكسب المعدومَ(٣)، وتُعين على نوائب الحقِّ(٤)!

هذا خير تهدر به تلك النفس العظيمة، التي لم تكن معروفة برِياشٍ أو ثراء، ولكنها العظمة لا ترضى إلا بالبذل والنفع!

وتلك رحمةٌ تشمل الناس كُلَّهُم، لاسيما الضَّعَفة والفقراء والمساكين والذين جهِدَهم البلاء وغشيتهم الكروب!

كلهم واجدٌ أبدًا عند الصادق الأمينِ ـ ﷺ ـ ظلًّا يلوذ به من هاجرة الحياة، ورحمةً تؤنسه في وحشة الجفاء، وكرمًا يُسبغ عليه إحسانه، وصلةً تقوم بحق الرَّحِم.

---

(١) هو الذي لا يستقل بأمره.
(٢) أي تهيئُ له طعامَه ونُزُلَه.
(٣) أي تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.
(٤) يعني: حوادث الأيام وما يعرض للإنسان من أزمات ومضايق.

يرِدُه الظِّماء العَطْشَى، ويصدرون من عنده وقد رَوِيَت نفوسهم وأرواحهم من أخلاقه الشريفة وشمائله المباركة ﷺ!

تلك السجايا الفريدة فيه ﷺ، ومن ورائها خلقٌ عُلْويٌّ يمتد أربعين عامًا في شِعَابِ السماء، نجمًا لا تعرفه الأرضُ إلا بالضوء! ما استطال على أحد، ولا عُرِف بكِبر، وما تقحَّم مَظلمةً، ولا قارف ريبةً، ولم تلحقه نقيصةٌ، وما أعان على أذى قطُّ، يوم كانت الاستطالةُ على الناس، والغارة عليهم في حُلْكَةِ الليل، والاحتكامُ إلى السيف؛ مَحْمَدَةً تُكسب المرء فَخارًا في قومه، وتُبقي اسمه خالدًا في قوافي الشعراء وحكايات السُّمَّار في الأندية والمحافل!

أفيحتكم إلى السيف من بعدُ، ويُعمله في الناس بغير حقٍّ وهو يُقيم قلوبَهم على صراط النجاة، وقريش تغلي مَراجِلُها غيظًا عليه وحُرْقَةً منه؟!

سؤال عبر إلى القلم هنا، وهو يطالع بهاءَ البدء الأول، فجعلتُه حيث عبر، وإن تقدَّم الركبَ قليلا!



بيان ورقة!

ومع هذا البيان الرحيم من أمنا خديجة رضي الله عنها، ينهض معها ليعرضا الأمر على ورقة بن نوفل، يستظهر الأدلة، ويستبين الأمر، شأْنَ الصدق إذا قام في قلب صاحبه، فهو يحمله على الاستبانة وبحث جذور الأمر، حتى يطمئن إلى ثمرته في نفسه.

وكان ورقة شيخًا كبيرا قد عَمِي، فقالت له أمنا خديجة رضي الله عنها: يا ابنَ عَمّ، اسمع من ابن أخيك!

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس(١) الذي نزَّل اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جذعًا(٢)، ليتني أكون حيًّا إذْ يُخْرِجُك قومك!

---

(١) يعني: صاحب السر، ويقصد سيدنا جبريل عليه السلام.

(٢) يعني: صغير السن.

فقال رسول الله ﷺ: «أو مُخْرِجِيَّ هُم» ؟!

قال: نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي، وإنْ يُدْرِكْني يومُك أنصُرْك نصرًا مُؤَزَّرًا.. ثم ما لبث ورقة أن مات.

هذا كل ما كان بينه وبين ورقة، ولم يكن منه إليه شيء سوى هذا السؤال الأليم: أومخرجيَّ هم!

وطُوِيَ بساط عمر ورقة سريعًا، كأنما كان بقاؤه بقاءَ ورقة الإجابة عن السؤال، تنتهي بانتهاء معناها، فيموت سريعًا كخفقة البرق، لتموت معه أسطورة الذين يزعمون وجودًا بشريا في رسالة محمد ﷺ، ويشيرون إلى ورقة!

وتؤازره أمنا خديجة رضي الله عنها، وتبسط عليه من حنانها وعنايتها ما جعلها بالمحل الأسمى في الكاملات من نساء العالمين رضي الله عنهن.



فترة الصدق !

ويفتر الوحي!

لقد كان المشهد الأول كله بيانًا واضحًا لا ريب فيه عند كل عاقل على أن هذا الوحي ليس شأنا بشريًّا قط، ولا هو من كَسْبِ حاملِه ﷺ قطُّ!

كيف يكون شأنًا بشريًّا وهو يذهب مرتجفًا إلى بيته، ويبث زوجه ما به، ويذهب يحمل السؤال، ويستفصل عن الحال؟!

كيف يكون شأنًا بشريًّا ومن تهيأ لشيء يخترعه، وابتدع أمرًا يرجو نشرَه في العالمين؛ يتلبس به الهم والكرب عند بدء نشره بين الناس؟! أفيكون مهمومًا وقد شرع في تحقيق مأربِه؟!

كيف يكون شأنًا بشريًّا ويفتر عنه الوحي، ويجد في قلبه ألم الحزن ولذع الوحشة، حتى لقد كان يصعد شواهق الجبال ليتردى منها، أفيكون الأمر منه، وبتدبيره ومكره واختلاقه

ـ وحاشاه ـ ويصعد فيلقي بنفسه من شاهق[(١)] ؟!

ما الذي يحمله على هذا إلا أن الأمر كُلَّه ليس منه ولا بكسْبِهِ ولا بطاقَتِه أبدا ؟!

هذا هو محض العقل ، ومحض النظر السوي عند كل عاقلٍ في دنيا الناس .

أيكون شأنًا بشريًّا ويفتر الوحي من بعدُ بعد أن استعلن بدعوته ، وهو يرى ويسمع تطاول السفهاء وسخريتهم من ذلك ، وهم يقولون: لقد قلى[(٢)] محمدًا ربُّه!

عجيبٌ ذلك التقدير الإلهي!

لقد جعل عليهم من أنفسهم شهودًا ؛ إذ أقروا واستعلنوا بفتور الوحي ، واتخذوه مُتَنَفَّسًا للضِّغْن الذي يحملونه على النبي ﷺ .

ولو عقلوا لكان في فتور الوحي مَقْنَعٌ لكل ذي عقل ؛ أن الأمر ليس من محمدٍ ﷺ ، ولا هو من قوله ، ولو كان ، وحاشاه ،

---

(١) تنبيه: خبر التردي من الجبال لا يصح سندًا ، وهو هَدَر ، ولكني أدرجته هنا حتى لا يتمسك به الطاعنون؛ فإنه دلالة صدق لا شيء فيه!

(٢) يعني: أبغضه ، وحاشاه سبحانه!

لدفعَ عن نفسه خوضَهم فيه بالأذى، ولنسج لنفسه درعًا من الآيات ـ وليس بمستطيعٍ ـ تردُّ عنه عاديةَ سهامهم المشتعلة!

لم يكن منه إلا صمت العابد الصابر المهموم، حتى أضاءت نفسه بنور ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.



ناس الصحراء

تتابع تثبيت الله لنبيه ﷺ بقواطع الأدلة تبثُّ في قلبه نور اليقين أنه هو رسول الله ﷺ؛ ليقوى عزمُه، وينهضَ بحمل أمانة الهداية للبشرية كلها.

يقول ﷺ عن تلك الأيام الأولى: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراءٍ جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض! فرُعِبْتُ منه، فرجعتُ فقلت: زمِّلوني!»

فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. فحميَ الوحي وتتابع.

وقال أيضًا ـ ﷺ ـ: «جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطتُ فاستبطنتُ الوادي، فنُوديت، فنظرتُ أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، فإذا هو جالسٌ على عرش بين السماء

والأرض، فأتيت خديجة فقلت: دَثِّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً باردًا، وأُنزِل عليَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾.

شواهد تقوم بين يديه بآيات مشهودة، وبواعث صدق وتثبيت بآيات الوحي تنزل من رب العالمين على قلبه، فنهض النبي ﷺ نهضة الحياة تبث أنفاسها في هامد النفوس والأرواح.

وقام يرعى تلك الأرواح بالرفق والرحمة، والأناة الهادية، والصدق الذي لا يتلعثم، والنفس التي لا تتهيب شواظ قريش ووعيدها، وهو يتلفت في هذا المحيط الفوار بعادات الآباء وناموس الوثنية العتيقة، يريد استخلاصها من أصفاد الضنك وأثقال الشرك، وجِلاءَ معادنها لتعود وضيئةً بخلالها الشريفة ومآثرها المحمودة!

نعم، إنها لنفوس وطئها الشرك، وغمسها في تياره الكالح، غير أنها نفوسٌ تعظم الكرم، وتلوذ بالجود، وتفخر بالإباء، وتتنادى عند النوائب، ويشد بعضها أزرَ بعضٍ في الخير والشر معًا، ويتناصرون ظالمين ومظلومين!

نبغ فيهم أمثال عبدالله بن جدعان، وحاتم طيئ، وهرِم بن

سنان، وكعب بن مامة الإيادي وغيرهم من الأجواد الكرماء..

وعُرِف فيهم من لُقِّبُوا بـ(أزواد الركب)، وهم ثلاثة نفرٍ كانوا لا يدعون غريبا أو عابرَ سبيلٍ أو محتاجًا يجوزهم[١] إلا أنزلوه وتكفَّلوا به حتى يظعنَ[٢]، وهم زمعة بن الأسود بن المطلب، وأبو أمية بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم، ومسافر بن أبي عمرو.

وكانو أمةً تعظم الوفاء وتستقبح الغدر، وتأنف من الوقوع في الكذب، ولو مع من تشنؤه وتحمل في قلبها عداوته، وما أَمْرُ أبي سفيان بين يدي هرقل وسؤالاته المشهورة؛ عنا ببعيد..

فقد قال رضي الله عنه، وكان إذ ذاك مشركًا: «فوالله لولا الحياء من أن يأثروا[٣] علي كذبًا لكذبت عنه»!

وكانوا أمةً تعظم الشرف وتتوهج في دمائها حرارة الغيرة وقَيْظُها، ولا يركبُ حرٌّ شريف المحتِدِ ظُلمةَ الفواحشِ قط، حتى إن النمص لم يكن في حرائر قريش، ويوم جاءت هند رضي الله عنها

(١) يعبر بهم.
(٢) يرتحل.
(٣) ينقلوا.

مبايعةً بعد الفتح قالت للنبي ﷺ وهو يأخذ العهد على النساء أن لا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجُلِهنَّ، فقالت بلهجة المستنكر الغضوبِ: أوتزني الحُرَّة؟!

وقد اتكأوا على عفةٍ عن المحارم أورثتهم رفعةً بين الأمم، وفي ذلك يقول عنترة:

وأَغُضُّ طرفي إن بدتْ ليَ جارتي

حتى يواري جارتي مأواها!

وكانوا من أشدِّ الناس تعظيمًا للجار وحقِّه، يبسط الرجل جواره على آخر، فيغدو ويروح آمنًا مطمئنًا لا يخشى شيئًا ولو كان دربه منصوبًا بين نواصي سيوفهم ورماحهم، وضُرِبَ المثل برجالاتٍ أجاروا من لاذ بهم، كقولهم: «جار أبي دؤاد»، ويعنون كعب بن مامة، الذي آثر صاحبه بالماء على نفسه، حتى قضى، ولهم في ذلك أعاجيب ليست لأمةٍ من الأمم!

وكانوا أهل أَنَفَةٍ لا يُسامون خسفًا، ولا يُسَوِّدون عليهم من لا يرتضونه، ولو تفانوا حتى آخرِ رجلٍ فيهم، ولقد استعرت سيوفهم أربعين عامًا من أجل ناقة وبعير، مثل الذي كان في

حرب داحس والغبراء!

وما كان يسود الرجل فيهم إذ يسود إلا بحلمه وكرمه وسداد عقله، وما آلت السيادة فيهم للئيم قط!

يقول حاتم طيئ في أبياتٍ مضيئة بتلك الخِلال الشريفة:

وعاذلـــة هبَّـــتْ بليـــلٍ تلـــومني
وقـــد غـــاب عيُّـــوق الثُّرَيَّـــا فعـــرَّدَا

تلـــوم علـــى إعطـــائي المـــال ضِـــلَّةً
إذا ضـــن بالمـــال البخيـــل وصـــردا

تقـــول: ألا أمســـك عليـــك فـــإنني
أرى المـــال عنـــد الممســـكين مُعَبَّـــدَا

ذرينـــي ومـــالي! إن مالـــك وافـــرٌ
وكـــلُّ امـــرئٍ جـــار علـــى مـــا تعـــوَّدَا

ذرينـــي يكـــن مـــالي لعرضـــيَ جُنَّـــةً
يقـــي المـــال عِرضـــي قبـــل أن يتبـــددا

أرينـــي جـــوادا مـــات هُـــزْلًا، لعلنـــي
أرى مـــا تـــرين، أو بخـــيلًا مُخَلَّـــدَا

ألــم تعلمــي أنــي إذا الضــيف نــابني
وعزَّ القِرى= أقْرِي السَّدِيفَ المُسَرْهَدا
يقولـون لـي: أهلكـتَ مالَـك فاقْتَصِـدْ!
ومـا كنــتُ لــولا مــا تقولــون سـيِّدا!

وكانوا من وراء هذا كله قومًا أهلَ بيان، ينبض بخفقات شعورهم، وأغمضِ ما في النفس الإنسانية من أسرار، فلقد كانت الصحراء معبدَ نفوسِهم الشاعرة، وأرواحهم النافذة في حُجُبِ الكون وآياته المنتصبة في الفلوات، فكان لهم مع الصحراء شأنٌ ساحر!

ويعجبني هنا أن أتحفك بهذا النص الشريف لأحد أئمة العلم، وهو العلامة محمد البشير الإبراهيمي، وهو يتحدث عن هذه الأمة الشاعرة وما صنعته الصحراء فيهم وما صنعوه معها، فيقول رحمه الله: «فإن هذه الصحراء التي هي آية من آيات الله. في أرضه، أو هي باب الفلسفة من هذا الكتاب الأرضي لم يعمرها الله بأمة تشرّبت معانيها، وتغلغلت في دقائقها، ولاءمت روحُها روحَها مثل الأمة العربية!

وسل التاريخ ينبئك، فهو لم يعرف أمةً خلعت عليها الصحراء

فطرتهَا وأفرغت عليها إفراغًا سابغًا غير الأمة العربية.

ومن ههنا جاشتْ نفوس العرب وتفتقت قرائحهم عن روائع الفلسفة الوصفية للصحراء وأرضها وسمائها وليلها ونهارها وأغوارها وأنجادها وبراريها القاحلة وشجراتها ومعايشها وقيظها وصرّها وحيوانها ونباتها!

وليس لأمةٍ من الأمم ما للعرب في وصف النجوم، حتى قرَّبتها تشبيهاتهم إلى الإدراك البشري، واعتبِرْ ما قالوه في سهيل والجوزاء والسِّمَاكين؛ الأعزلِ والرامحِ، والثريا والخضيب والدَّبَرَان والنَّسْرَيْن الواقع والطائر، على كثرة النجوم وكثرة ما قالوه فيها، وإذا كانت النجوم لا تُحْصَى عدًّا، فقُلْ ذلك فيما قالته العرب فيها.

ومن بدائع تشبيهاتهم في النجوم أخذ المعري تلك المنازع الغريبة وتلك النظرات الفلسفية البعيدة الغور المنبثَّةَ في لزومياته، وهي بابٌ على حِدَةٍ من فلسفته الكونية، وما نبع ذلك الزُّلال، ونبغَ ذلك السِّحْرُ الحلال إلا مما تركه العرب من تشبيهاتهم لها وتخيلاتهم فيها.

وانظر أوصافهم البديعة لظلمة الليل وروعته وأثرها في نفوسهم وقارن ذلك بوصفهم للنجوم؛ ينكشفْ لك بعضُ السر من تلك النفوس وارتباطها بكونها وامتزاجها به، ولا أُبْعِدُ إذا قلتُ: إنه ليس للأمم مجتمعةً ما للعرب في هذا الباب.

وليس لأمة من الأمم ما لهم في وصف الحيوانات الضارية.

وإن أمم الحضارة على وفرة أدواتها لم تدرُسِ الضواريَ إلا بعد أن دجَّنتها، وفاتَهم أن التدجين يذهب بكثيرٍ من الخصائص الطبيعية لها، فيفوت بذلك على الدارس كثيرٌ من النتائج، واعتبر ذلك بِتدجيننا ـ ونحن بشرٌ ـ كيف اغتال خصائصنا ومقوّماتنا، ومسخ معنوياتنا حتى أصبحنا أحط من بعض أنواع الحيوان!!

أما العرب فخالطوا الضواري في أغيالها واقتحموا مآسِدَ خَفَّانَ والثَّرِيّة وتَرْج[١] وغيرها، وذللت أرضها أقدامهم، ومنهم من عايش الضواري حتى ألفها وألفته وجمع بينهما عالم كعالم المثال عند الصوفية، فلطفت في السبع سَوْرَة السَّبُعِيَّة وشِرَّتُها

(١) مواضع كثيرة الأُسد.

وامتدت في العربي الميزة الحيوانية، وتقاربت الغرائز في الجو الحيواني الوسط، فصدق الوصف وحق التصوير. ولو لم يكن العربي أميًّا وكان ممن يدرس الأشياء على المناهج العلمية، لأتى العالم بالمعجزات.

وليس لأمةٍ من الأمم ما للعرب في وصف الحشرات والزواحف والإلمام بطبائعها ووجوه تصرفاتها وسعيها في معائشها وتناسلها ودراسة ما بينها من امتزاج وتنافر؛ وصفٌ عن عِيانٍ ودراسة في الجو الطبيعي.

وإذا أردت أن تفهم بعضَ السر في خصيصة العرب في الوصف، فاعلم أنّ الصحراء لبستهم ولبسوها، حتى أصبحت حياتهم جزءًا منها فأورثتهم ملكة التأمّل، ولو سمّيناها ملكة الحواس لكان هذا هو الصحيح، ومنها جاءتهم دقة الحسّ ولطافة الشعور وصدق التصوير، ولا نشترط على التاريخ أن يأتينا بأمةٍ أُمِّيَّةٍ من أَمَمِه يطاول بها أمة العرب في هذا الباب، بل نتنازل وندعوه لأن يأتينا بأمة من أمم الحضارة تستطيع أن تقف بجانب العرب في هذا الميدان»[1]!

(١) من رسالة الضب في أعمال الكاملة.

أما البيان! وأما الشعر! وأما الحرف يتهادى من فم أحدهم يدع المعنى ماثلًا يتوهج بالحياة، مضيئًا ينبض بالنور، كاملًا كأنما صب فيه صاحبه روحه كلها وما فيها من عبقرية الوصف وجمال البيان ونفاذ الشعور؛ فهذا كاد يكون خالصًا لهم من بين الأمم، سبقًا وإمامةً وبراعةً لا ينتهي جمالها، وعبقريةً يُبلس أمامها كل ذي بيان!

هؤلاء كانوا العرب، على وجازة ما أبنته لك، وهؤلاء هم الذين بُعث فيهم النبي ﷺ.

وقد جعلت القلم يتنفس هنا قليلًا؛ لأن في بيان هذه النفوس بيانًا لدعوة النبي ﷺ، كيف جاس خلال هذه النفوس فخلصها من رهق الوثنية، ثم لأني رأيت أن صورة العرب في هذا الموضع قد أعتمت في صفحات كثيرٍ من الذين لقفوا صورة العرب عن غيرهم، فطمسوا فيهم كل خير، وجعلوهم كالحصى البشري ليس منه إلا الأذى والقسوة والشر.

وللعرب من بعد هذه الخلال المُعجِبة التي مرت بين يديك؛ نفوسٌ طَفِئَتْ فيها معالم التوحيد، وبليتْ رسومه، وتهاوت إلى خرافاتِ الآباء وأساطير الكهنة تجعلها دينًا تعتقده، فكأن هذه

الخلال الشريفة من الكرم والنجدة وحسن الجوار والعفة وسائر ما يدور في هذا الفلك؛ كانت كالإنسان المثقل بقيوده في تابوت الشرك، وهو ممددٌ في تلك الظلمة التي خلَّفه فيها الآباء ينتظر اليد التي تكسر عنه خشبة تابوته وحديدة قيده؛ ليعود إلى الله موحدًا، فتعود فيه الحياة عابدا!



ناس السماء

حمل النبي ﷺ نور الوحي في صحراء مكةَ يصحبه خُلُقَانِ لا يتخلفان عنه:

* **تعظيم الحق**: الذي يحمله فلا يلتوي في بيانه، ولا يتلعثم في تبليغه، ولا يداهن في اعتقاده.

* **الرحمة التامة**: فلا يجلس قط عن استنقاذ النفوس من جاحمة النار، ويحتمل في سبيل فكَاكِهم من عذاب الله قيظَ الأذى ومرارةَ الخوض فيه بالكذب ممن كانوا بالأمس لا يذكرونه إلا بالصادق الأمين!

يصعد الجبال، ويفارق الظلال، ويعرض نفسه على القبائل، ويخوض فجاج الجمر في رمضاء مكة حاملًا ظل الهداية، وربيع التوحيد في صحرائها التي يبست تحت سطوة الشرك، باللسان الفصيح، والوجه الباش، والصبر المعجز!

وما كان معه في هذا الميدان إلا القرءان يبعث به موات نفوسهم، ويعصف بظلمات الوثنية وكهنتها، ولا يدع في النفوس مكانًا لغير فجر الوحي ونوره الوضَّاء!

ولقد ساوموه وجادلوه، وكذبوا عليه، وآذوه في نفسه وأصحابه، وسلطوا عليه سفهاءَهُم وأطلقوا ألسنة شعرائهم وذوي اللَّسَنِ فيهم بالسوء، فما زاده ذلك إلا اعتصامًا بالله تعالى، وتعاليًا ساميًا بالحق لا تكون ذرةٌ منه أبدًا في قلب دعيٍّ كذاب، ورحمةً غامرة لا تنبع من قلبٍ عرفت الدنيا إليه سبيلا!

إنَّ من خصائص النبي ﷺ التي يلحظها كل من أوى إلى حياته دارسًا متفحصًا: أن كل موقفٍ منه، أو عبارةٍ يلقيها، أو حال من أحواله؛ يقوم وحده، بذاته، شاهدًا على صدقه ونبوته ﷺ!

لقد أشعلوا مكة وما حولها كذبًا وزورًا عليه، فما زاده ذلك إلا سعيًا في الناس بالنور وحده، فلم يسمعوا منه سبًّا أو هُجْرًا، وما وجدوه إلا ساميا على الحق، رحيمًا بتلك العقول التي غُمِسَتْ في تنُّور الخرافة والشرك!

وكل من عرف النبي ﷺ، وعاينه ناجيًا من شراك الكذب

والتضليل التي نصبتها قريش بين الناس وبين دعوته ﷺ ؛ آمن به إيمانًا أسرع من البرق وأسلس من الماء!

فإنَّ شمائله وصفاته وحدها شاهدةٌ على نبوته، ثم إنهم لأهلُ بيانٍ، فما هو إلا أن يطرق القرءانُ قلب الواحد منهم حتى يلجَ إلى بوابة الإيمان وإن كان عريقًا في كفره من قبلُ!

ولذلك كان إيمان السابقين الأولين كالصِّدِّيق، وأمنا خديجة، وعثمان وعلي وابن مسعود وسعد وعبدالرحمن بن عوف؛ سهلًا رهوًا؛ لأن الإيمان بأن محمدًا نبيٌّ، وأن القرءان ليس كلام البشر؛ تجلى في قلوبهم كالبداهة العقلية التي لا يجادل فيها إلا مطموس القلب أو العقل.

ولقد ضيق النبي ﷺ عليهم السبل، فأغلقها بين يدي سماسرة الكذب وكهنة المداهنة: أي شيءٍ يتوسلون به ليصرفوه عن هذا الحق؟!

إنه ليقف من الدنيا بعيدًا وقوف النجم هنالك في عليائه، فكل إغراءتهم وأموالهم اللامعة، تلتمع التماع السراب الكذاب بين يدي من ملأ سقاءه وجراره بالماء، فليس يبالي به، ولا يلتفت إليه!

إنهم ليعالجون من صدقه عنتًا ومشقة:

هذا رجل ماتت الدنيا في قلبه فلا تعرف إليه سبيلا..

وهذا مثال حيٌّ لكمال الأخلاق وتمام الرجولة فلا يجدون فيه مغمزًا بالسوء، وإنما يتنفسون بالافتراء الكاذب الذي هم أول من يعلم أنه كذب وافتراء!

وإنهم ليعلمون أن الذي يتلوه ويبلغه عن الله تعالى؛ كلامٌ مفارقٌ لسمت كلام البشر نثرا وشعرًا ورجزًا وقصيدًا، شهد بذلك عليهم سمعهم ونطقت به أفئدتهم، ووجد أحيانًا سبيله إلى ألسنتهم التي أقرت فقالت بيانًا عجبًا في نعت القرءان المجيد!

ودونك هذه القصة الفريدة وفيها ما يُغني عن غيرها:

عن ابن عباس ﵄ قال: لما أنزلت على النبي ﷺ سورة غافر قرأها النبي ﷺ في المسجد، فسمعها الوليد ثم انطلق إلى مجلس بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد كلامًا آنفًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إنّ أسفله لمُغْدِق[١]،

---

(١) الغَدق: المطر الكثير القطر والخير.

وإن أعلاه لمُونِق[١]، وإن له لحلاوةً، وإن عليه لطُلَاوة[٢]، وإنه يعلو ولا يُعلَى. ثم انصرف.

فقالت قريش: لقد صبأ الوليد! والله لئن صبأ الوليد لتصبأنَّ قريشٌ كلُّها، وكان يقال للوليد ريحانةَ قريش. فقال أبو جهل: أنا أكفيكُموه.

فانطلق إليه بدهائه وخبثه، حتى دخل عليه وهو حزين فقال: يا عمّ! إن قومَك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليُعطوكه؛ فإنك أتيت محمدا تتعرّض لِما قِبَلَه!

يريد أن يثير غضبه فيُعرِّض أنه قال ما قال من أجل المال!

فقال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولا يبلغ قومَك «أنك كاره له»!

قال: وماذا أقول فيه؟! والله إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن!

---

(١) حسنٌ مُعجِب.

(٢) الحُسن والقبول.

فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه!

فقال له الوليد: دعني أفكر فيه.

فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم: يا معشرَ قريش! إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقْدَمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبِكم هذا، فأجْمِعُوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضُكم بعضًا!

إنهم ليعلمون أن لا سبيل إلا الكذب أمام من لا سبيل لأحدٍ إذا سمع منه إلا الإيمان به!

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس أقِمْ لنا رأيًا نقوله فيه!

قال: بل أنتم فقولوا أسْمَعْ.

قالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن؛ فقد رأينا الكُهَّان فما هو بزمزمةِ[١] الكاهن ولا سَجْعِه.

قالوا: فنقول مجنون!

---

(١) الكلام المبهم غير المفهوم.

قال: والله ما هو بمجنون؛ فقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالُجِه[١] ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر!

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهَزَجَه وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطَه[٢]، فما هو بشاعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: والله ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسِحْرَهم، فما هو بنَفْثِه ولا عُقَدِه.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله حلاوةً، وإن عليه طلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لمثمر، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر؛ فما يقول سحر يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

(١) اضطرابه.

(٢) يعني أنواعًا من الشعر وأوزانه.

فتفرّقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسون بطريقِ الناس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروه لهم!

فلقد حاولوا حجب الناس عنه بالكذب، وحجبه عن الناس بالأذى، وصرفه عن الحق بالرهبة والرغبة، وحجب المؤمنين به عن الحق بالتعذيب والنفي والحصار!

فما نالوا من وراء هذا كله إلا الفشل، فما ارتد أحدٌ من أصحاب النبي ﷺ سخطةً لدينه، وما نفعتهم كلمات السوء ودعايا التضليل، وما وجدوا بابًا يصلهم إلى النبي ﷺ ليساوموه فيداهنهم!

قال عقيلُ بن أبي طالب رضي الله عنه:

جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: أرأيت أحمد؟ يؤذينا في نادينا، وفي مسجدنا، فانْهَهُ عن أذانا، فقال: يا عقيل، ائتني بمحمد!

فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم، وفي مسجدهم، فانتهِ عن ذلك، قال: فلحظ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «ما أنا بأقدرَ على

أن أدعَ لكم ذلك على أن تُشعلوا لي منها شُعْلَةً». يعني الشمس!

قال: فقال أبو طالب: ما كذب ابن أخي. فارجعوا.



ربيع الوحي



فجأ النبي ﷺ العالمَ بدعوتهم إلى الله تبارك اسمه توحيدًا وعبوديةً، ونبذ كل ما لا يكون به الإنسان إنسانًا اعتقادًا وعملًا «يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ» كما قال أبو سفيان في جوابه عن سؤال هرقل: ماذا يأمركم؟

وهي وصايا تعيد بناء الإنسان على قواعد الفطرة، وخلع الأوثان الفكرية والعقدية من تقاليد بالية وتصورات خرافية يأنف من قبولها كل عقل سوي.

ويحضر الصدق جذرًا موغلًا في أصل دعوة النبي ﷺ الناسَ، وأصلًا راسخًا تنبع منه كل الفضائل التي تتمم معنى الإنسان في الوجود!

وتنادت قريش فيما بينها، معاداة للنبي ﷺ، وانتصارًا للزيف

الذي جعل نفوسهم هشيما تتقاذفه رياح العصبية أنى شاءت، والنبي ﷺ على صراط الصبر يهمس سرًّا بدعوته أربع سنوات، ليس له شأن إلا استنقاذ النفوس من غش الجاهلية وزيفها وأثقالها السوداء، ونقلها إلى فلق التوحيد وبحبوحة الإيمان بالله تعالى، بالوحي وحده ليس يصحبه شيء من زينة الدنيا وبهرجها!

ثم جاء الأمر الإلهي صريحا في الإعلان بالنذارة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾!

وكان أمرًا كبيرًا على نفس النبي ﷺ!

إن في نفسه من الرحمة بالناس ما يكسوه غمًّا كاويا عند إعراضهم عن الوحي خشية تعرضهم لعقاب الله الأليم!

وهؤلاء قومه بين يديه، حصى متناثر في رمضاء مكة، قد أكلت الوثنية عقول كبارهم، ولفحهم شُوَاظُها الأثيم، فكيف يُطيق النَّفَاذَ إلى قلوبهم الموصَدَةِ؛ ليستقر فيها ضوء الوحي وهدايته؟!

تلك اللأواء الرابضة في صدره لم يزل يعاني حَرَّها وآلامها حزينًا كظيما أن يراهم يتفلتون منه إلى ميراث الآباء والأجداد المحترق!

ولقد صبر في هذا الأمر صبرًا خاصًّا لا يطيقه إلا نبيٌّ ؛ فإن القلب الذي صنعه الله تعالى ليسع العالمين برحمته ؛ هو هو القلبُ الذي يحتاج إلى صبر شاهقٍ يسع آلام هذه الرحمة وجراحاتها عندما يُعْرِضُ الناس عن جمال النور إلى جحيم النار!

إنه ليصعد الجبال ويمشي في الأسواق ويتعرض للناس في المواسم، ويجلس إلى كبارهم، ويغشى أنديةَ القوم ومجتمعاتهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا، لا يصبر عن دعوتهم، كأنما تتسع نفسه الشريفة بالفعل في جغرافيا الوجود، كما اتسع قلبه بالرحمة في جغرافيا الروح!

عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم قال: لما نزلت على النبي: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ اشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق به ذرعًا، فمكث شهرا أو نحوه جالسا في بيته، حتى ظن عمَّاتُه أنه شاكٍ[1] فدخلن عليه عائداتٍ فقال: ما اشتكيتُ شيئًا، لكنَّ الله أمرني أن أُنْذِرَ عشيرتي الأقربين، فأردت جَمْعَ بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى

(١) يعني: مريض بأبي هو وأمي ﷺ.

وهذا لا يكون إلا قلب نبي صادقٍ يتدفق بنور الرحمة، فيثقل عليه هم هداية الناس!

فقلن له عماته: فادعهم ولا تجعل عبدَ العُزَّى فيهم ـ يعنى أبا لهب ـ؛ فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه.

وخرجن من عنده، فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث إلى بني عبد المطلب، فحضروا ومعهم عِدَّةٌ من بني عبد مناف وجميعهم خمسة وأربعون رجلا.

وسارع إليه أبو لهب وهو يظن أنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبّون، فلما اجتمعوا قال أبو لهب ما بين الترغيب والترهيب بنفث مصبوغٍ بروحه المظلمة:

هؤلاء عمومتك وبنو عمك، فتكّلم بما تريد ودع الصلاة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبةً طاقةٌ، وإنَّ أحبَّ مَن أخذكَ فحبسك؛ أُسْرَتُك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك، فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتَمُدَّها العرب، فما رأيتُ يا ابن أخي أحدًا قط جاء بني أبيه وقومه بشرٍّ مما جئتَهم به!

فأوى رسول الله ﷺ إلى الأناة والحلم واعتصم بالصبر

فلم يتكلم في ذلك المجلس، ومكث أيامًا وكثر عليه كلام أبي لهب، فنزل عليه جبريل عليه السلام فأمره بإمضاء ما أمره الله به وشجّعه عليه، وليس معه من الدنيا شيء، إلا جوار الله وحفظه!

فنهض بالصدق نهضةَ البعثِ في بيداءَ ماتتْ فيها الهداية، وجمع قومَه ثانيةً فقال: الحمد للَّه، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهلَه، والله لو كذبتُ الناس جميعًا

ما كذبتُكم، ولو غررتُ الناسَ ما غَررتُكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصةً وإلى الناس كافة!

والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُحَاسَبُنَّ بما تعملون، ولتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها للجنةُ أبدًا أو النار أبدا!

وإنكم لأولُ من أُنْذِر، ومَثَلِي ومَثَلُكم كمثلِ رجلٍ رأى العدو فانطلق يربأُ(١) أهله فخشي، أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه!

فقال أبو طالب: ما أحبّ إلينا معاونتَك ومُرَافَدَتَك(٢)، وأَقْبَلَنَا

(١) يحفظ.
(٢) عونك وصلتك.

لنُصْحِك، وأشدَّ تصديقَنا لحديثك!

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم، غير أني والله أسرعُهم إلى ما تحبُّ، فامضِ لِما أُمِرْتَ به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أني لا أجد نفسي تطوَّعُ إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه.

وتكلم القوم كلاما ليّنا غير أبي لهب، فإنه قال: يا بني عبد المطلب! هذه والله السَّوءة! خُذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركُم، فإن أسلمتموه حينئذ ذَلِلْتُم، وإن منعتموه قُتِلْتُم!

فقال أبو طالب: والله لنَمْنَعَنَّه ما بقِينا.

وقالت صفية بنت عبد المطلب لأبي لهب: أي أخي! أيحُسن بك خِذْلان ابن أخيك وإسلامُه[1]؟ فوالله ما زال العلماء يُخبرون أنه يخرج من ضِئضئ[2] عبد المطلب نبيٌّ، فهو هو.

فقال متكبرًا: هذا والله الباطل والأمانيُّ وكلام النساء في الحِجَال[3]، إذا قامت بطون قريش كلها وقامت معها العرب

(١) يعني: تسليمه للأعداء.
(٢) يعني: من صُلبه وأصله.
(٣) يعني بيوت النساء التي لها ستور.

فما قوّتنا بهم؟! فو الله ما نحن عندهم إلا أكلَة رأس[١].

وروى الشيخان والبلاذري عن ابن عباس، والشيخان عن أبي هريرة، ومسلم عن قبيصة ابن المخارق رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ لما أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قام على الصّفا[٢] فعلا أعلاها حجرا ثم نادى: يا صباحاه[٣]!

فقالوا من هذا؟

وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يُرْسِلُ رسولًا لينظرَ ما هو.

فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه، فقال رسول الله ﷺ: إن أخبرتُكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا يشهدون على أنفسهم شهادة الحق في نعته بالصدق الخالص ﷺ: ما جربنا عليك كذبا.

فهو يستنطقهم ﷺ بما يكون حجَّتَه عليهم إن عصوه وأطاعوا

---

(١) يعني: قلة العدد.

(٢) جبل بمكة.

(٣) كلمة تقال عند استنفار من كان غافلاً عن عدوّه، لأنهم أكثر ما يغيرون عند الصباح، ويسمّون يوم الغارة يوم الصّباح.

أهواءهم!

لقد لخَّص تاريخ أخلاقه معهم في سؤال واحد منه وجوابٍ واحدٍ منهم!

فلما أعطوه ميثاق الصدق وقع عليهم بهذا البيان الرحيم الذي ينطق بالصدق اللاهب، والشفقة المتوقدة التي تعصف بمعابد الوثنية في صدورهم عصفًا، وتُهَيِّئُها لتئوبَ ناضرةً إلى محراب التوحيد، فقال يصب في قلوبهم بيانَه المضيءَ صبًّا:

يا معشر قريش! أنقذوا أنفسكم من النار؛ فإني لا أُغْني عنكم من الله شيئًا!

يا بني عبدِ مناف! أنقذوا أنفسكم من النار؛ فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا!

يا بني عبد شمس! أنقِذُوا أنفسكم من النار؛ فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا!

يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار؛ فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا! يا عباسُ عمَّ رسول الله ﷺ! أنقِذْ نفسَك من النار؛ فإني لا أغني عنك من الله شيئًا!

يا صفية عَمَّةَ محمدٍ! ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ! أنقِذَا أنفُسَكُمَا من النار؛ فإني لا أملك لكما من الله شيئًا، غير أنَّ لكما رَحِمًا سأَبُلُّها ببِلَالِها(١)، إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد!

فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟

فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها.

ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب! إني والله ما أعلم شابًّا من العرب جاء قَومَه بأفضلَ مما جئتُكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

بيانٌ فيه الصَّدْعُ بالحق عاريًا من زوائد الزَّيف والنَّفْس، يتهادى في النفوس بقوته هادرًا بالنور، حيًّا بالصدق، تكسوه الرحمةُ من بدئِه إلى منتهاه!

ينادي عليهم كلهم كأنما يمر بين قلوبهم وأعصابهم وأرواحهم ليصبَّ فيها الحياة التي جفَّت تحت ركام القرون المثقلة بالشرك والخرافة!

(١) يعني أصِلُها، فاستعاروا البلَّ بمعنى الوصل، واليُبس بمعنى القطيعة.

وليس في كلامه حرفٌ يتعلق بمغنم، أو طمعٍ شخصي، أو شيءٍ مما يسعى الناس إليه في دنياهم، فكان بذاته داعيةً إلى الحق، وكان بكلامه داعيةً إلى الحق.

وإنَّ كلامًا يحوطه الصدق، وترعاه الرحمةُ، ويؤازره الحقُّ، وينبع من مشكاة السمو، وتترادف فيه النِّذارة من النار، وإعلان العبودية التي لا تغني عنهم شيئا؛ كلامٌ لا تجد الروح عن متابعته والانقياد إليه بُدًّا، والشهادة بالله لصاحبه بأنه أصدق الخلق ﷺ!

فما أطمعهم بدنيا، ولا فاوضهم، وما خلا لعَقْدِ الحِيَلِ مع كِبارهم مداهنةً وخضوعًا، بل بادَأَهُم بالحق مُبادَءَةَ الشمس الكونَ بالضياء!



ملكوت الرحمات



وقد قام رسول الله ﷺ في شعاب مكة بحق الرسالة، لا يبالي بما يعرض له من أذى المخالف، وتربص العدو، وطعن الكارهين، بل سار فيهم وقلبه في السماء لا تنال منه سهام التهديد ولا تصرفه عما ابتعثه الله إليه من هداية الناس، ورحمتهم من شقاء الدنيا والآخرة..

وعلى ما كان من الأذى والسعير الذي لحقه وأصحابه؛ ما انتصر لنفسه قط، وما ضَعُفَ عن حَمل بشارة النور مهما أوقدوا حوله من نار الأذى والتضييق الذي تفننوا فيه بكل ما تحمله عبقرية الشر من عداء وعنت!

وهذا بعض بوحه إلى أحب الناس إليه أمنا الصديقة رضي الله عنها، تبيانًا لبعض ما لحقه من الأذى:

فقد سألته يومًا:

هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد؟

فقال ﷺ:

لقد لقيت من قومك!.. وهي كلمة تدل على صنوف شتى من الأذى كالذي يقول لك: لقد رأيت من الأهوال ما رأيت!

ثم قال ﷺ:

وكان أشدَّ ما لقيت منهم يومُ العقبة[١]، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبدِ ياليلَ بنِ عبد كُلَالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردْتُ أحدٌ!

ثم شرع النبي ﷺ يقول كلاما ينبض بالهم وكأن كل حرف منه قد اكتوى ألمًا وأذى، فقال:

فانطلقت على وجهي وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب[٢]!

هذا همٌّ لا يسكن إلا قلبًا قد غمرته الرحمة فجاش بالألم حزنًا على إعراض الناس!

---

(١) لعل الأرجح أنه مكان مخصوص في الطائف.

(٢) اسم موضع بقرب مكة.

وتلك كلمة لا يقولها إلا من اختصه الله تعالى برحمةٍ محت من نفسه كل شوائب الضغينة والغلبة والانتقام!

لقد انخلع من قيد الزمن ومقاييس الأرض، ودخل في زمن قلبه وروحه ومشاعِرِه!

فكأني أُبْصِر وجهَه الشريف ﷺ وقد كساه هَمُّ الصدق، وغشيته عاطفة الرحمة، فسار مطرقًا لا يكاد يرفع عينيه عن الأرض من شدة ما يحمل من أثقال الهم!

فكانت صورته وحدها آيةً دالةً على أن هذا الرجل نبي، وأن هذا الرجل أرحم الناس بأعدائه قبل أوليائه!

ثم قال ﷺ:

فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني وقال: إن الله تعالى قد سمع قولَ قومِك لك وما ردُّوا عليك.. وقد بعثَ إليك مَلَك الجبال لتَأْمُرَه بما شئتَ فيهم!

فناداني مَلَكُ الجبال فسلّم عليَّ، ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمعَ قولَ قومِك، وأنا مَلَكُ الجبال، قد بعثني الله ﷻ

لتأمرني بما شئتَ: إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْن[١]!

تلك إذن ساحةٌ يتنفس فيها القلب بالانتقام، ويختال فيها الحقد ونوازع الغلبة والثأر من الذين آذوه في نفسه وأصحابه!

وقد امتدت بين يديه تلك الساحة، ومن حولها إذن الله تعالى وسَمَاحُه، وفي ذلك ما يسقط عن النفس تبعةَ الطلب بالانتقام، وقد ضيقت قريش عليه منافذ العفو، فابتني لهم من نفسه حصون رحمة وإحسان تحول بينهم وبين عقاب الله لهم!

فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله ﷻ من أصلابهم من يعبد الله ﷻ ولا يشرك به شيئًا.

وهذا مشهد خالد لا يبلى، فياض برحمةٍ لا تنتهي أبدا!

إنه حديث عهدٍ بأذى المشركين، فليس عفوه عنهم عفوَ المتكئِ على أريكته، يقول ما يقول وهو ناعمٌ في ظلال النعمة!

وإنه ليحمل من الهم ما حمله إلى أرضٍ بعيدةٍ وهو مستغرقٌ في ألمه وحزنه وهمه، فالتمعت فوق رأسه سحابة فيها بشارة

(١) يعني جبليْ مكة: أبي قبيس ومقابله قيقعان، سُمِّيا بذلك لصلابتهما وغِلَظ حجارتهما.

الغَلَبَةِ إن أراد على أعدائه بسقيا عذاب وخَسْفٍ، فلا يلتفت عن صراط الرحمة ونهج الإحسان!

وإنه لَيُعْرَضُ عليه الأمر مُؤَيَّدًا بالإذن الإلهي، فيستعيذ لهم برحمة الله من عذاب الله طامعًا في هداية أبنائهم وإن أوصدوا هم أبواب الهداية عن أنفسهم!

وهم الذين آذوه بمشهدٍ من الناس، فعفا عنهم وليس هنالك أحدٌ من الناس، ولو أراد لذهب إليهم فجمعهم فخيرهم ممتنًا عليهم، وما فعل.. وما كان لرحمة الله للعالمين أن يفعل!

إنَّ عظمته ليست عظمة المكافئ على الإحسان بالإحسان وحسب، بل إنها لتُضعف الإحسان لمن آذى واشتد في الأذى!

وإنه في علياءِ أخلاقِه لا يهبط إلى سَفْحِ المعاندة والأَثَرَة ومنازلة المشركين في ميدان الأخلاق؛ فإن ذلك لا يليق بأعظمِ الخَلْق خُلقًا، وأرحمِ الناس قلبًا، ﷺ!

فما كان للنجم أن يصل منه إلى الأرض إلا الضوء الذي يمزق ستور العتمة في نفوس الشاردين عن الحق والحقيقة!

والعفو يكون عظيما عند وجود الألم، والقدرة على العقاب؛

فإنهما إذا تصاحبا كان العفو عسيرًا على غير النفس العظيمة!

ولقد كان عفوه نابعا من قلب يسكن جسدًا لم تزل فيه جراحات الأذى، ولم يزل يدوي في أذنه الشريفة سبهم وشتمهم وهجوهم وافتراؤهم!

ولم يزل يلوح في عينه مشاهد أصحابه يلقون الأذى والتعذيب فلا يملك لهم إلا دعوتهم للصبر!

ما نسي أصحابه يخافتون بإسلامهم ويسرونه، وما ذهبت عنه مشاهد الاستخفاء بالإيمان والفرار من المشركين، ولم يرَ ذلك التخيير فسحةً للتوسعة على النفس والصحابة، فما كانت تتسع نفسه وفي الناس من يعرض نفسه لعذاب الله، وما عوتب على شيءٍ مثل معاتبة ربه إياه على ما يعتمل في صدره من الآلام التي تكاد تعصف بنفسه ويموت منها كمدًا أنهم لا يؤمنون:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.. ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.. ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.. في آيات كثيرةٍ تواسيه وتمسح عن قلبه آلام صد المشركين عن الهدى وإصرارهم على النار!

ولقد فقه صاحبه الصديق رضي الله عنه هذا الصبر الشريف الهائل، وعلم خبيء ما في قلبه ﷺ من الألم؛ إذ القلب عندما يتسع بالرحمة، فإنه ولا بد يتسع بالألم حزنًا على المعرضين..

فقد روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء أبو بكر رحمة الله عليه بأبي قحافة يقوده إلى رسول الله ﷺ شيخا أعمى يوم فتح مكة فقال رسول الله ﷺ: ألا تركتَ الشيخَ حتى نأتيَه؟ قال: أردتُ يا رسول الله أن يأجرَهُ الله! أما والذي بعثك بالحق لأنا كنتُ أشدَّ فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك! قال: صدقتَ(١).

وما عاد من موقفه هذا إلى قومه بحرفٍ زائد فيه استعلاء، أو بكلمة جارحةٍ فيها التهديد، بل هو الوحي بنوره ورحمته وهدايته، يحمله في قلبه، ويبلغه في الناس.

ولقد كانت مكة ساحةً للوحي يصادم كهنة الشر وحملة مشاعل النار.. فما ارتفع فيها سيفٌ بيد مسلم، وما هوى سوطٌ إلا على جسد مسلم، وما تفرق المسلمون جماعاتٍ ترصد

---

(١) رواه البزار، وأصل القصة صحيح، وهذه رواية ضعيفة. وفي الحديث ما فيه من جمال وجلال لا تسعه تلك التذكرة الصغيرة!

المشركين وتتعقبهم اغتيالًا وقتلا!

بل كان الوحي وحده مهيمنًا، فخلت مكة من صليل سيفٍ مسلمٍ، فلو شارك السيف في البدء الأول لجعله من يحب الثرثرة مجالَ اشتباه أن يكون من أسلم أسلم تحت بارقة السيف، وما أسلم من أسلم إلا بضياء الوحي ونور حامله وحسب!

لقد شهدت مكة غيابين لكل من:

* السيف مع قوة الباعث إليه من أذى المشركين..

* والمغنم الدنيوي!

وبقيت بوابة الوحي سبيلًا واحدًا للإيمان بالنبي ﷺ.

وإليك بعضَ الصور من هذا الذي كان لتعلم أن لو لم يكن صدق النبي ﷺ باهرًا، ولو لم يكن ضوء الوحي غامرًا؛ لكان من العقل البعد عن سبيل هذا الإنسان الذي يزعم أنه نبي؛ لأن من وراء الإيمان به والسير خلفه معاداة الناس، ونار الأذى، وعقارب البغضاء التي تهيج في صحارى مكة وشعابها!

هذا أبو ذر رضي الله عنه يحكي لك طرفا مما كان:

خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يُحِلُّون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أُنَيْسٌ وأُمُّنا، فنزلنا على خالٍ لنا، فأكْرَمَنَا خالُنا وأحسن إلينا، فحَسَدَنَا قومُه فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالَفَ إليهم أُنَيْس!

فجاء خالنا فنثا[(١)] علينا الذي قيل له، فقلت: أمَّا ما مضى من معروفك فقد كَدَّرْتَه، ولا جِمَاعَ[(٢)] لك فيما بعد، فقربنا صِرْمَتَنَا، فاحتملنا عليها، وتغطى خالُنا ثوبَه فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافَرَ[(٣)] أُنيس عن صرمتنا[(٤)] وعن مثلها، فأتيا الكاهن، فخيَّرَ[(٥)] أُنَيْسًا، فأتانا أُنَيْس بصِرمتنا ومثلِها معها.

قال: وقد صليتُ، يا ابن أخي، قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين!

---

(١) يعني أخبرنا وبثنا.
(٢) لن نصلك ونجتمع معك بعد ذلك.
(٣) المنافرة هي المفاخرة والمُحاكَمة، فيفخر كل واحد من الرجلين على الآخر شِعرًا، ثم يتحاكمان إلى رجل ليَحْكم أيُّهما خيرٌ وأعزُّ نفرًا.
(٤) الصّرمة هي القطعة من الإبل، وتُطْلق أيضًا على القطعة من الغنم.
(٥) جعل الغلبة له على خصمه، فحكم بأنه الخِيار والأفضل.

قلت: لمن؟ قال: لله!

قلتُ: فأين تَوَجَّهُ؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل أُلْقِيتُ كأني خِفاء[١]، حتى تعلوني الشمس.

فقال أُنيس: إن لي حاجةً بمكة فاكفني، فانطلق أنيس حتى أتى مكة، فراث عليَّ[٢]، ثم جاء، فقلت: ما صنعت؟

قال: لقيتُ رجلًا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله.

قلت: فما يقول الناس؟

قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر! وكان أُنيس أحدَ الشعراء.

قال أنيس: لقد سمعتُ قول الكَهَنِة، فما هو بقولِهم، ولقد وضعتُ قوله على أقراءِ[٣] الشعر، فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون!

قال: قلت: فاكفِني حتى أذهبَ فأنظرَ.

---

(١) يعني يسقط متعبًا من كثرة ما صلى كأنه ثوبٌ مَرْمِيٌّ.
(٢) يعني تأخر وأبطأ.
(٣) أنواعه.

قال فأتيت مكة فتضعَّفتُ[١] رجلًا منهم، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟

فأشار إليَّ، فقال: الصابئ!

فمال عليَّ أهل الوادي بكل مَدَرَةٍ وعَظْم، حتى خررتُ مغشيًّا علي، قال: فارتفعت حين ارتفعت، كأني نُصُبٌ أحمر[٢]!

قال: فأتيت زمزم فغسلت عني الدماء: وشربتُ من مائها.

ولقد لبثت، يا ابن أخي ثلاثين، بين ليلةٍ ويوم، ما كان لي طعامٌ إلا ماء زمزم، فسَمِنْتُ حتى تكسَّرت عُكَنُ بطني[٣]، وما وجدت على كبدي سَخْفَة جوع[٤]!

قال: فبينا أهل مكة في ليلةٍ قَمْراءَ إضحيان[٥]، إذ ضُرب

(١) يعني تخيَّر رجلاً ضعيف البنية حتى إذا أراد إيذاءه قويَ عليه ودفعه عنه.
(٢) المدر: قطع الطين اليابس. يعني: جمعوا كل ما يستطيعون فضربوه ضربًا شديدًا فسال منه دمٌ شديد، حتى جعلوه كالصنم الذي احمرَّ من كثرة دماء القرابين.
(٣) سمن حتى تثنى بطنه من اللحم.
(٤) رقة الجوع، يعني أشبعه ماء زمزم فما أحسَّ جوعًا.
(٥) مضيئة مقمرة.

على أَسْمِخَتِهِم[١]، فما يطوف بالبيت أحد!

وامرأتان منهم تدعوان إسافا، ونائلةَ، قال: فأتتا عليَّ في طوافهما فقلت: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الأخرى!

قال: فما تناهتا عن قولهما، قال: فأتتا عليَّ، فقلتُ: هَنٌ مثلُ الخشبة[٢]! غير أني لا أكني فانطلقتا تُوَلْوِلَان، وتقولان: لو كان هاهنا أحد من أنفارنا!

قال: فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر، وهما هابطان، قال: «ما لكما؟» قالتا: الصابئُ بين الكعبةِ وأستارِها!

قال: «ما قال لكما؟» قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأ الفم[٣]، وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحَجَر، وطاف بالبيت هو وصاحبُه، ثم صلى، فلما قضى صلاته ـ قال أبو ذر ـ فكنت أنا أولَ من حيَّاه بتحية الإسلام، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله فقال: «وعليك ورحمة الله» ثم قال: «من أنت؟»

---

(١) أي ناموا نومًا ثقيلاً.

(٢) يستهزئ بآلهتهم يريد أن تنصرفا ولو بكلام قبيح ليكون وحده في البيت الحرام.

(٣) يعني قبيحة مستشنعة.

قال: قلت: من غفار، قال: فأهوى بيدهِ فوضع أصابِعَه على جبهته، فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار! فذهبت آخذ بيده، فقدعني[(١)] صاحبه، وكان أعلمَ به مني.

ثم رفع رأسه، ثم قال: «متى كنت هاهنا؟» قال: قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم.

قال: «فمن كان يطعمك؟»

قال: قلت: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزم فسمِنتُ حتى تكسَّرت عُكَنُ بطني، وما أجِدُ على كبدي سَخفة جوع!

قال: «إنها مباركة، إنها طعام طُعْم».

فقال أبو بكر: يا رسول الله ائذن لي في طعامه الليلةَ.

فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وانطلقت معهما، ففتح أبو بكر بابًا، فجعل يقبُض لنا من زبيب الطائف، وكان ذلك أولَ طعامٍ أكلتُه بها، ثم غَبَرْتُ[(٢)] ما غبرتُ، ثم أتيت رسول الله ﷺ.

---

(١) كفَّ يده ودفعها بشدة، إجلالاً للنبي ﷺ وخشية أن يكون أراد به سوءًا.

(٢) يعني بقيت مدة.

فقال: «إنه قد وُجِّهَتْ لي أرضٌ ذاتُ نخل، لا أُرَاها إلا يثربَ، فهل أنت مُبَلِّغٌ عني قومك؟ عسى الله أن ينفعهم بك ويَأْجُرَك فيهم».

فأتيت أُنَيْسًا فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت أني قد أسلمتُ وصدَّقْت، قال: ما بي رغبةٌ عن دينك، فإني قد أسلمتُ وصدَّقْتُ، فأتينا أُمَّنا، فقالت: ما بي رغبة عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدقت، فاحتملنَا حتى أتينا قومنا غفارا، فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم أيماء بن رَحْضة الغفاري وكان سيدهم. وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسْلَمْنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم نصفُهم الباقي وجاءت أَسْلَمُ، فقالوا: يا رسول الله! إخْوَتُنا، نسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»!

ويروي ابن عباس رضي الله عنهما طرفًا آخر من قصة أبي ذر رضي الله عنه فيقول:

لما بلغ أبا ذرٍّ مبعثُ النبي ﷺ بمكة قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني.

فانطلق الآخر حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر!

فقال: ما شفيتني فيما أردتُ.

فتزود وحمل شَنَّة[(١)] له فيها ماء، حتى قدم مكةَ، فأتى المسجدَ فالتمس النبيَّ ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه ـ يعني الليل ـ فاضطجع، فرآه عليٌّ فعرف أنه غريب، فلما رآه تبِعَه، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح.

ثم احتمل قِرْبَته وزادَه إلى المسجد، فظل ذلك اليومَ، ولا يرى النبي ﷺ، حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه.

فمر به علي، فقال: ما آن للرجل أن يعلم منزله؟!

فأقامه، فذهب به معه، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيء، حتى إذا كان يومُ الثالث فعل مثل ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثم قال له: ألا تحدثني؟ ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن

(١) قِرْبة.

أعطيتَنِي عهدًا وميثاقا لتُرْشِدَنِّي، فعلتُ، ففعل.

فأخبره فقال: فإنه حقٌّ وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحتَ فاتبعني، فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك، قمت كأني أريقُ الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي.

ففعل، فانطلق يقفوه[1]، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانَه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيَك أمري».

فقال: والذي نفسي بيده لأَصْرُخَنَّ بها بين ظهرانَيْهِم! فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه!

فأتى العباس فأكبَّ عليه، فقال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غِفار، وأنَّ طريق تُجَّاركم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد بمثلها، وثاروا إليه فضربوه، فأكب عليه العباس فأنقذه.

تلك قصاصة صغيرةٌ من سجل ضخم من المعاناة والعنت

---

(١) يتبعه.

والمشقة التي كانت تحاصر كل من أراد متابعة النبي ﷺ.

وقد كان الذين يتركون جذور الوثنية التي نبتوا فيها، وينخلعون من ميراث الآباء والأجداد الشركيِّ، يعلمون أنَّ مدَّ اليد إلى النبي ﷺ ببيعة الإسلام تعني مفارقة الراحة، ومواجهةَ الكيد العَسِر الذي أهونه الافتراء والكذب، وأشده التعذيب، وأعلاه القتل والتهجير ومفارقة الأهل والدار والخروج من المال، والهرب من الرصد، وذهاب السكينة.. وما زاد ذلك قلوبهم إلا بريقًا وضياءً!

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ ـ يعني بيعة العقبة الثالثة ـ قال العباس بن عُبادة بن نَضْلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف:

«يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تُبايعون هذا الرجل؟»

قالوا: نعم.

قال: «إنكم تبايعونه على حَرْبِ الأحمرِ والأسودِ من الناس، فإن كُنْتُم تريدون[1] أنكم إذا نَهِكَتْ أموالَكم مصيبةٌ وأشرافكم

(١) وفي بعض الروايات: ترون.

قتلٌ؛ أسلمتموه، فمن الآن! فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة!

وإن كنتم تريدون أنكم وافون له بما عاهدتموه على نَهْكَةِ الأموال وقتْلِ الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة»!

قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله»؟

قال: «الجنة».

قالوا: ابسط يدك. فبسط يده، فبايعوه.

وقال له العباس بن نضلة بعدما بايعوه: «والله الّذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدا بأسيافنا» فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤْمَر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

الخروج من معنى الدنيا كان شأن الذين آمنوا بالنبي ﷺ، فما كان لقاعدة الدعوة في مكة أن تبنى على شيءٍ من الدنيا، بل كانت البينةُ:

في ضياء الوحي لا بارقة السيف!

وكان الوعد أخرويا لا دنيويًا.. الجنة!

فكانت مكة كلها عنوان الصدق والصبر والإيمان!

فكل من أقبل عليه فقد أقبل بقلبه لا بشهوته رغبًا ورهبًا..

فمن سأله: مالي إن آمنت بك وأسلمت، لم يكن معه من إجابة سوى كلمة واحدة: الجنة!

وهو وعد لا يبرق إلا في نفس صفَّاها الإيمان، وتلك نفوسٌ طَفِئَت فيها الدنيا، واستبدت بها الآخرة؛ فهي لا تزن إلا بميزان يوم البعث وحسب، وما أوتِ الآخرة إلى صدر، حتى تكون الدنيا وناسها أهونَ شيءٍ عليه، وتلك خِصِّيصة الوحي إذا خالط نورُه خفقاتِ القلوب!

والآيات المكية عامرة بتلك القواعد الإيمانية التي تقيم القلب في مشهد الآخرة، حتى إذا جاءت الدنيا من بعدُ جاءت لتلامس الجِبِلَّة الإنسانية، لا معدنَ الإيمان وجذره لتزيفه!

لقد فطمهم النبي ﷺ عن الشرك بنور الوحي؛ فذاقوا حلاوة الإيمان!

وفطمهم عن الدنيا بغمس قلوبهم في كوثر الآخرة؛ فاستقامت

نفوسهم على صراط الصدق والثبات، فما ارتد منهم أحدٌ سخطةً لدينه!

أحب أن ننظر هنالك معًا في مشهد يأتي بعد ذلك بسنين؛ لترى كيف أرسى النبي ﷺ دعائم الوحي وميزان الآخرة في نفوس أصحابه:

روى ابن إسحاق، والإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، والإمام أحمد، والشيخان من طريق أنس بن مالك، والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم - رضي الله عنهم - أن رسول الله - ﷺ - أصاب غنائم حنين، وقسم للمتألّفين من قريش وسائر العرب ما قسم، وفي رواية:

طفق يعطي رجلا المائة من الإبل، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، فوجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثر فيهم القالة حتّى قال قائلهم: يغفر الله - تعالى - لرسول الله - ﷺ - إنَّ هذا لهو العجب يعطي قريشا، وفي لفظ الطّلقاء والمهاجرين، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، إذا كانت شديدةٌ فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا وددنا أنّا نعلم ممن كان هذا، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من

رأي رسول الله ـ ﷺ ـ استعتبناه.

وفي حديث أبي سعيد: فقال رجل من الأنصار لأصحابه: لقد كنت أحدثكم أن لو استقامت الأمور لقد آثر عليكم. فردّوا عليه ردًّا عنيفا. قال أنس: فحدّث رسول الله ـ ﷺ ـ بمقالتهم.

وقال أبو سعيد: فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله! إن هذا الحيّ قد وجدوا عليك في أنفسهم.

قال: «فيم»؟

قال: فيما كان من قَسْمك هذه الغنائمَ في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟

قال: ما أنا إلا امرؤٌ من قومي.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ـ وفي رواية القبّة ـ فإذا اجتمعوا فأعلمني».

فخرج سعد يصرخ فيهم حتّى جمعهم في تلك الحظيرة.

وقال أنس: فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبُّة من أَدَمٍ[(١)] ولم يدعُ غيرَهم، فجاء رجال من المهاجرين فأذِن لهم فيهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، حتى إذا لم يبقَ أحدٌ من الأنصار إلّا اجتمع له، أتاه فقال يا رسول الله: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتَني أن أَجْمَعَهم.

فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «هل منكم أحدٌ من غيركم»؟ قالوا: لا يا رسول الله إلا ابنُ أختنا.

قال: «ابن أخت القوم منهم».

فقام رسول الله ـ ﷺ ـ خطيبًا، فحمِد اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: «يا معشر الأنصار! ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله ـ تعالى ـ، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألَّف بين قلوبِكم؟

قالوا: بلى يا رسول الله، الله ورسوله أمنُّ وأفضلُ.

وفي رواية قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وماذا نجيبك؟

المنّ لله ـ تعالى ـ ولرسوله ـ ﷺ!

---

(١) جِلد.

ثم قال ﷺ: «والله لو شئتم لقلتم فصَدَقْتُم وصُدِّقتم، جئتَنا طريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، وخائفا فأمَّنَّاك، ومخذولًا فنصرناك، ومُكَذَّبًا فصدَّقناك» فقالوا: المنّ لله - تعالى - ورسوله!

فقال: «وما حديثٌ بلغني عنكم؟» فسكتوا، فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم»؟ فقال فقهاء الأنصار: أمّا رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا، وأمَّا أناسٌ مِنَّا حديثةٌ أسنانهم قالوا: يغفر الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - يُعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!

فقال رسول الله - ﷺ - «إنّي لأعطي رجالًا حديثي عهدٍ بكُفْرٍ لأتألَّفهم بذلك»

وفي رواية: إنّ قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أَجْبُرَهم(١) وأتألَّفهم! أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَةٍ(٢) من الدّنيا تألّفتُ بها قوما أسلموا، ووكَلْتُكم إلى ما قسَمَ الله - تعالى - لكم من الإسلام؟!

(١) يعني تطييب خواطرهم وجبر قلوبهم رحمةً منه بهم ﷺ.

(٢) يعني قليلة فانية زائلة.

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاس إلى رحالهم بالشّاة والبعير وتذهبون برسول الله - ﷺ - إلى رحالكم، تحوزونه إلى بيوتكم؟! فو الله لَمَنْ تنقلبون به خيرٌ ممّا ينقلبون به!

فو الذي نفسي بيده لو أنّ النّاس سلكوا شِعْبًا وسلكتِ الأنصار شِعْبًا لسلكتُ شعب الأنصار.

أنتم الشِّعار[١] والنّاس دِثار، الأنصار كَرِشِي وعيبتي، ولولا أنّها الهجرةُ لكنت امرأً من الأنصار، اللهمّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار!

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله حظّا وقسما.

فبكى النبي ﷺ معهم، ورَضِيَ عنهم، فكانوا بالذي قال لهم أشدَّ اغتباطًا وأفضلَ عندهم من كل مال!

(١) يعني أنتم الخاصة المقربون مني والناس العامة. والشعار: ما ولي الجسد من الثياب. وكذلك معنى كرشي وعيبتي، يعني خاصتي من الناس وموضع سرّي.

ما كان لمثل هذا المشهد، وغيره كثير في حياة النبي ﷺ؛ أن يقوم إلا في نفوس توثقت فيها أواصر الآخرة، وصاغها الوحي صياغةً فريدةً، ليس فيها من أصباغ الدنيا شيء.

وما كان لهذا المعنى أن يربو في نفوسهم وينمو، لو لم يكن حيًّا ماثلًا بين أعينهم في حياة النبي ﷺ..



اصطفاء



كنت أقف كثيرًا وأنا سائر في حديثه وسيرته ﷺ أمام هذا المعنى الذي لا تخطئه بصيرة أبدا..

تحتشد الغنائم بين يديه حتى تكون كالكومة فلا يقوم حتى يفرقها في أيدي المسلمين، ولا يصيب منها من شيء!

ويجود بالخير جودًا دهِش له العرب الذين كانوا يعرفون معنى الجود كيف يكون، ولهم في أخباره قصصٌ وقصص، غير أن جوده ﷺ كان جودًا فيه بذل المعروف، مع الزهد في الدنيا، فكان ولا شك آخذًا بألبابهم أخذًا كان سببا في إسلام الكثيرين!

إن النظر إلى أخلاقه ﷺ لا ينبغي أن يكون نظرًا مجردًا للخلق ذاته، ولكن للخلق في نفسه هو ﷺ..

فإذا قيل إنه كريم، زاهد، حييٌ، رحيم، متواضع؛ فإن تلك الخصال الشريفة تكتسب في شخصه حضورًا آخر يفارق نسق

حضور ذلك الخُلق في الناس، وتلك دقيقةٌ هامةٌ جدًّا لابد من الانتباه إليها عند النظر في شخص النبي ﷺ.

ولقد نطق بذلك من كان عريقًا في كفره، فأبت نفسه إلى الإسلام بلمح تلك الخصيصة الشريفة..

انظر معي هنا:

هذا صفوان بن أمية الجُمَحي، أقبل على النبي ﷺ ما حمله على الخروج إلا ابتغاء الغنائم.. يقول:

ما زال رسول الله ـ ﷺ ـ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليّ حتى ما خلق الله ـ تعالى ـ شيئا هو أحب إلي منه. وفي صحيح مسلم أنه ـ ﷺ ـ أعطاه مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة!

وكان صفوان طاف مع رسول الله ـ ﷺ ـ يتصفّح الغنائم إذ مرّ بشِعْبٍ مملوء إبلا ممّا أفاء الله به على رسوله ـ ﷺ ـ فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعجبك هذا الشّعب يا أبا وهب؟» قال: نعم. قال: «هو لك بما فيه» فقال صفوان: أشهد أنك

رسول الله ـ ﷺ ـ ما طابت بهذا نفسُ أحدٍ قطُّ إلا نبيٌّ!

وصدق! ما من خصلة من خصال الخير إلا ولها في نفس رسول الله ﷺ معراج آخر يعلو بها سموًّا في مدارج الكمال.

ولقد يصف بعض الناس بعضًا بالتواضع، غير أن لهذا الخلق فلكًا علويًّا في نفس النبي ﷺ:

لقد كان عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويكون في مهنة أهله!

وكان يقوم فيحمل التراب مع أصحابه في بناء المسجد وشق الخندق، ويجلس حيث ينتهي به المجلس لا يتمايز عنهم بثياب أو هيئة!

ليست العظمة هنا في أن يكون هذا الكبير بين الناس، يجلسون إليه ويجلس إليهم، بل إن أحد أكبر جوانب عظمته أنه لا يُشعرهم أنه يفعل أمرًا استثنائيًّا أن يماثلهم مشاركةً في حياتهم وثيابهم وجلساتهم أعظم الخلق!

فلطالما رأينا المحبين يتسابقون إلى إرضاء محبوبهم، فهو جالس في ظِلال خدمتهم له، قد كفوه مؤنة أن يباشر عملًا بيده

شأن الناس مع من يحبونه أو يعظمونه أو يرهبونه.

ولذا كان مُدْهِشًا أنْ يَمُرَّ به أحدٌ فيراه يحلب شاته، أو يخصف نعله، أو يرقع ثوبه؛ فلا يسابقَ هو إلى كفايته هذا الأمر.

غير أنه أسكتَ هذه البداهةَ القلبيَّةَ بعظمته الصامتة التي أسكنتْ في نفوسهم ذلك المعنى الذي يتجاوز أُفُقَ التواضع: أنا مثلكم، أحمل التراب، وأحفر الخندق، وأضع الحجر على بطني، وأُطْعِمُ دابتي، وأحْلِبُ شاتي، وأرقع ثوبي وأخْصِفُ نعلي، وأداعب الصغار، وأمشي في الأسواق، وتأخذ الجارية بيدي فلا أردها، وأنام على الحصير!

ليست عظمته في فعل هذا وحسب، بل وفي ترويضه قلوبَهم على اعتياد هذا منه، وكفِّها عن مَنْعِهِ من مباشرة شيءٍ بنفسه، وَفْقَ قانون الحب الذي عند الناس!

ولو أن الحُجُبَ أُزيلت، وسافرت الأزمنة بالناس فوقفت بين يديه ﷺ، ورأته يخصف نعله، لما أطاق محبٌّ إجهادَ حبيبِه وأعظم الخلق ﷺ!

ولكن الصحابة ـ وهم أعظم الناسِ حبًّا له ـ أطاقوا ذلك، وما أقْدَرَهَم على هذا الصبر الذي لا يطيقه مُحِبٌّ، إلا هو ﷺ!

إنَّ الأمر هنا يتجاوز سقف التواضع إلى آفاق أخرى لا تنتهي من الجلال، أن يجلس بيننا أعظم الخلق، ولا نرتاع أنه هنا بجوارنا!

صلى الله عليه وسلم..

فلا تمرر مواقف مثل ضحك المقداد رضي الله عنه بين يديه حتى يستلقي على ظهره، أو مثل ضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى من قول هند بنت عتبة عند مبايعة النبي ﷺ النساء في فتح مكة، أو ذِكْر الصحابة الأمرَ من أمور الجاهلية وضحكَهم بين يديه وضحكَه معهم، وارتجازَ من يرتجز بين يديه، ومُزاحهم.. كل هذا لا تمرره بعيدًا عن ذلك الأصل الذي استبان لك: ما كان لهم أن يفعلوا هذا مطمئنين غير متكلفين مع هيبته وجلال قدره في نفوسهم؛ إلا بسببه ﷺ!

وإن الناس ليصف بعضهم بعضًا بالرحمة، ولكن الرحمة في نفس النبي ﷺ شأنٌ معجزٌ مهما أدرت في تبيانه قلمي فإنه حسيرٌ عاثر!

هذا جذع كان يخطب عليه في الناس، ففارقه إلى منبر صُنِعَ له ـ ولم يطلبه ـ فلما كان يوم خطبته وقف رسول الله ﷺ في الناس خطيبا من على منبره، وإذا صوتُ حنينٍ وبكاء يملأ فضاء المسجد النبوي، فتناثرت الأعين بحثًا عن الصوت الذي كان حزينًا أليمًا لاهبًا كأنما هو خوار ثور، أو حنين ناقةٍ، أو صياح صبيٍّ ملتاع!

وإذا هو الجذع..!

جماد لا يضر ولا ينفع، وليس مثله ممن إذا أُحسن إليه انطلق بقصائد الثناء ومدائح الشعر!

وليس هو بالذي يذهب فيشكو إلى أحدٍ من الناس لو كان أعرض عنه النبي ﷺ!

وقد كان ممكنًا أن يشير إليه النبي ﷺ من مكانه ليسكن!

وقد كان ممكنًا أن يستأنف الكلام مبينًا تلك المعجزة، كيف خرق الله له العادة!

إن من اللافت للنظر حقًا أنك ما ترى النبي ﷺ قطُّ ـ في حياته كلها ـ دعا أحدًا من أصحابه إلى مشاهدة معجزة أو معاينةِ

آية يجريها الله تعالى على يديه، إلا أن يكون ذلك مع المشركين والمعاندين..

لقد كان عبدًا رسولًا، وليس شأنُ العبد الصادق أن يصخب بالنعم أو يختال بها مستعرضا بين الناس!

لقد فارق مكانه لا لعظيمٍ من الناس، وإنما لجمادٍ ذهب يواسيه مواساةً نقول فيها ما قاله صفوان بن أمية: والله ما طابت بهذا نفس أحدٍ إلا نبيٌّ!

لقد احتضنه وجعل يُسَكِّنُه حتى سكن، ثم استفاض برحمته الغامرة فقال له:

«اخْتَرْ أن أغرسك في المكان الذي كنتَ فيه فتكونَ كما كُنتَ، وإن شئتَ أن أغْرِسَكَ في الجنة، فتشربَ من أنهارها وعيونها، فيحسنَ نَبْتُك وتُثْمِرَ فيأكلَ منك الصالحون» فاختار الآخرة على الدنيا.. فقال النبي ﷺ: «لو لم أحْتَضِنْهُ لحنَّ إلى يوم القيامة»!

لم يكن عبثًا أن يكون هذا الحديث حديثًا متواترًا مقطوعًا بصِحَّتِه، وهو كافٍ وحدَه للدلالة على أنَّ محمدًا هو رسول الله ﷺ.

فلقد تلقَّتْه قلوب الصحابة ﵃، وانطلقت به ألسنتهم، وشاع في الناس وعبر التاريخ ومساحاتِ الزمن آيةً ناطقة بنبوة النبي ﷺ، لا لحنين الجذع وسماع صوته وحسب، بل لفعله هو وسلوكه معه ﷺ، وهو أعظم آيةً من حنين الجذع.

كما أني أرى أن مقتضى هذه الشمائل الشريفة أن يكون حظه من النساء أكبر من حظِّ بقية أمته؛ لأن من أعظم المرايا الكاشفة عن أخلاق الرجل؛ أهل بيته، وقد قال ﷺ ذلك: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

وتلك الخيرية لا بد وأن يتسع معناها بتوسعها في المصاهرة توسعا لا ينافي الزهد، ولا يحجب عظمة القيام بتلك الخيرية في شأن الزواج!

فلم يكن النبي ﷺ مستكثرا استكثار المتطلع إلى الدنيا، ولا السالك مسالك الذين جعلوا مقياس عظمة الرجل على قدر تبتله وانقطاعه عن الزواج ونفرته من المرأة!

ولسن كُلُّهن نمطًا واحدًا من الصفات، ولو قصر نفسه على واحدةٍ لقيل لو كان معه غيرها لما وسعتهم نفسه إحسانًا وصبرًا! ولكنه تزوج نساءه، وكل واحدةٍ منهن على نمط مستقل من

صفات جاراتها، وما كان منه إلا الشمائل المعجزة والأخلاق التي جعلت زوجًا من زوجاته تقول ـ والزوجة أعلم الناس بسرِّ زوجها، وأخبَرُهم بدخيلة نفسه ـ: «كان خلقه القرءان»!

وليس يعرف الناس في دنيا الأخلاق نعتًا وراء ذلك وأعلى، تقوله امرأة عن زوجها الذي تعلم خبأه وتُطَالِع سره!

وإليك قطفًا من هذا الخلق العظيم مع أحب زوجاته أمنا الصديقة رضي الله عنها:

فقد كان يدنيها منه ﷺ، ويبسط عليها من حنانه ورحمته، ويترجم قوله إلى فعلٍ شريفٍ تأنس به أمنا رضي الله عنه، فيتتبع مواضع طعامها وشرابها ليشرب منها، ويُلطف لها الخطاب، «فيقول: إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى» قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لاَ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ: لاَ وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ» قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ»..

فبادلته حبًّا بحبٍّ، ولُطْفًا بلطفٍ ﷺ.

ويكون قافلًا من غَزَاةٍ، وقد صحبته أمنا الصديقة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فيأمر الجيش أن يتقدموا ليفسح للصديقة مجالا للمؤانسة واللطف، فيدعوها إلى مسابقته، فيسابقها فتسبقه، تنزُّلًا منه وفضلًا ﷺ، وإيناسًا لقلبها بالفرحة الطاهرة، والبسمة المضيئة تشرح صدرها، وتغمره بالسعادة!

ثم تمر قوافل الأيام ويعيد النبي ﷺ الكَرَّة داعيًا إياها للمسابقة، وقد بدنت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ونسيتْ ما كان، والنسيان هاهنا لتتابع الإحسان؛ فكل شأنه معها حب ورحمة، وإنما يذكر الإنسان الأمر إذا كان فريدًا يقع في الفرط والندرة، ولكنَّ إحسانه ﷺ كان سماءً لا ينتهي أمدها في عيون الناظرين! فتقول: فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ بِتِلْكَ»!

ويوم أن همَّ بها والدها الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين سماع ارتفاع صوتها وهي تتحدث مع رسول الله ﷺ في بيتهما، «فقال لها: يَا بِنْتَ فُلاَنَةٍ، تَرْفَعِيْنَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ـ ﷺ ؟!

فَحَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا.

ثُمَّ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَتَرَضَّاهَا، وَقَالَ: (أَلَمْ تَرَيْنِي حُلْتُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَكِ؟).

ثُمَّ اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ مَرَّةً أُخْرَى، فَسَمِعَ تَضَاحُكَهُمَا، فَقَالَ: أَشْرِكَانِي فِي سِلْمِكُمَا، كَمَا أَشْرَكْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا».

فقد قطَعَ عنها النبي ﷺ ما يؤذيها، ولو من والدها حَمِيَّةً له، وجعل يترضاها تطييبًا لخاطرها، وإسعادًا لنفسها، وفي هذا ما فيه من حبه لها رضي الله عنها.

ويأتي الحبشة إلى مسجد النبي ﷺ، فتحب الصديقة أن تنظر إلى لعبهم بالحراب، ولا يكون إطلالها على هذا المشهد الطريف، إلا وهي مسندة رأسها على كتف النبي ﷺ، ما بين أذنه وعاتقه، وهي تطيل الوقوف، لا استزادة من النظر، بل إظهارا لمكانتها عند النبي ﷺ، فتقول أمنا: «فقال رسول الله ﷺ: «حَسْبُكِ»، فقلت: يا رسول الله، لا تعجل، فقام لي، ثم قال: «حَسْبُكِ»، فقلتُ: لا تعْجَل يا رسول الله. قالت: وما بي حب النظر إليهم، ولكني أحببت أن يبلغَ النساءَ مقامُه لي، ومكاني منه».

ففي هيئة الوقوف ما فيها من حنان النبي ﷺ، وحبه لها،

وقد كان بوسعه أن يجعلها تشاهد المشهد وحدها، بتهيئة مكان تطل منه على لعب الحبشة بالحِراب، وقد كان ممكنا أن يقف إلى جوارها، دون أن يجعل من كتفه الكريم موئلا لرأسها تستند عليه وتطل على المشهد من خلاله، وقد كان ممكنًا أيضًا أن لا يقف معها حتى تنتهي ـ وقد أطالت ـ بل كان مقبولا أن يقف قليلا ثم ينصرف لشأنه، وقد حُمِّل ما حُمِّلَ من أعباء الدعوة وأمر الأمة!

لكن هذا الإمكان كُلَّه منفِيٌّ في حق الصديقة، ففي إفساحه الوقت لها، شاهد حبٍّ لا يتلعثم، وفي إطالة الوقوف، شاهد آخر، وفي هيئة الوقوف، شاهِدٌ ثالث، وفي احتماله إطالة الوقوف شاهد رابع، وفي رعايته لحداثة سنها، وصبره الودود، ولطفه الحاني شاهدٌ وشاهدٌ، فهو موقف زاخر بشواهد الفضل التي لا تنتهي على أنه كان مثالًا فذًّا بين العالمين في معاملته أزواجه ـ ﷺ.

لقد أوت إليه الأرملة (أمنا خديجة وأمنا أم سلمة وأمنا زينب بنت خزيمة وأمنا سودة)، والمُطَلَّقَة (أمنا حفصة وأمنا زينب بنت جحش)، والمهاجرة الفارة بدينها (أم حبيبة)

والمنكسرة بذَهَابِ سُلطان أهلها (أمنا صفية وأمنا جويرية)، والسُّرِّية (السيدة مارية)، ولم يكن له زوج بكرٌ غير (أمنا الصديقة) رضي الله عنهن جميعا؛ فوجَدْنَ كلُّهنَّ عنده أمان السكينة، وجلال الرحمة، وشرفَ الصحبة، وجمال العشرة، وروعة الاحتمال والصبر والإحسان.

حتى إذا حانت لحظة التخيير بين العيش معه رضا به وصبرًا عن الدنيا، أو مفارقته والتمتع بمباهج الدنيا؛ كان الخيار الأول والأخير هو الله ورسوله ﷺ!

مع أن بيوتاته ﷺ كانت تسرد الصوم عن الدنيا فليس يُوقَد فيها نارٌ الشهرَ والشهريْن، وما فيها إلا الماء والتمر، زهدًا لا فَقْدًا!

غير أن هذه البيوت التي خلت منها الدنيا لخلو نفس قيِّمها من الدنيا؛ كانت معمورةً بما يُقِيتُ القلوبَ والأرواحَ والنفوسَ بسعادةٍ تُطِلُّ بهم على مثل شُرُفَات الجنة، وليس يُعقل أن تُتْرَك الجنةُ لحفنةٍ من حُطَام الدنيا!

و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾..

السيف !



كانت مكة خاليةً من نبت السيف، مُجْدِبَةً من آثاره؛ ليَخْلُصَ الوحي قائمًا في النفوس بنوره يهديها ويزكيها، مع إمكان القدرة على إعمال السيف واصطفاء نفوس المشركين والاحتكام إلى الغضب والثأر مُهيمنًا على العقل وحاكمًا على السيف!

لقد لقي أصحابه من العَنَتِ والتعذيبِ ما يجعل دعوتَهم إلى السيف تسيل منه مكة وشعابها بالدم؛ أحبَّ شيءٍ وأقربَه إلى نفوسهم العزيزة المتألمة!

ولكنَّ هذا لم يكن منه ﷺ في تربيته إياهم.

ومن عَلِمَ نفس العربي وما جُبِلت عليه من الأنفة، وما في أطوائها من رفض الضيم ومصادمته؛ علم أن هذا الصبر الذي رباهم عليه النبي ﷺ، صبرٌ لا تطيقه إلا قلوبٌ تطهَّرَتْ بالوحي.

لقد صَلِيَتْ نفوس الصحابة من حر الصبر وجمراته ما خلَّصَها من شوائب الجاهلية، وحرَّرها من نوازع التطلع إلى الغلبة، والاحتكام إلى السيف.

وما كان للسيف أن تحمله يدٌ غير موصولةٍ بقلبٍ مُصَفًّى من غدرات الجاهلية وسوادها، حتى إذا حملته فلِحِراسة الحق، وحَطْم الأسوارِ التي تحول بين الناس ونوره، ومتى أطلت الجاهلية بكلمةٍ أو حرفٍ أو شِعارٍ؛ نفاه النبي ﷺ ووضعه تحت قدمه.

هذا سعد بن عُبادة يعطيه النبي ﷺ رايته، فهو أمام الكتيبة، فلما مرّ سعد براية رسول الله - ﷺ - نادى أبا سفيان فقال: اليومَ يومُ الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة! اليوم أذلَّ الله قريشًا!

فلما مر رسول الله - ﷺ - بأبي سفيان، قال: يا رسول الله! أمرتَ بقتل قومك؟!

ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟

قال: «ما قال»؟

قال: كذا وكذا، وإني أَنشُدك الله في قومك، فأنت أبرُّ الناس،

وأَوْصَلُ الناس، وأرحَمُ الناس.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «كذب سعد يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم يوم تُكْسى فيه الكعبة، اليوم يومٌ أعزَّ الله فيه قُرَيْشا!

مع أن الناس يُحمل منهم في مثل هذه الملاحم ما يُحْمل في غيرها؛ لأنها موطن فخارٍ وغلبةٍ واستعلاء على الأعداء، لاسيما من ساموهم سوء العذاب، وسعوا كل مسعى في إيذائهم والقضاء عليهم..

ولكنها النبوةُ في سموها وجلالها!

ويوم أخطأ حبيبه وابن حبيبه أسامة بن زيد رضي الله عنهما فقتل من قال لا إله إلا الله في ميدان المعركة!

غضب النبي ﷺ غضبًا عظيما عُرِف في وجهه ومنطقه، وجعل يهدر بالغضب فيقول:

«مَنْ لكَ بلا إله إلا الله يومَ القيامة»؟!

فقال أسامة رضي الله عنه: يا رسول الله، إنما قالها مخافَةَ السلاح!

فما التفت النبي ﷺ لقوله ولا اعتذر عنه، بل قال: «أفلا شَققْتَ عن قلبه حتى تعلمَ مِن أجلِ ذلك قالها أم لا؟ مَن لكَ بلا إله إلا اللهُ يومَ القيامةِ»؟!

قال أسامة رضي الله عنه: فما زالَ يقولُها حتى ودِدْت أني لم أُسلم إلا يومئذ!

لقد كان يحاصر النبي ﷺ الجاهلية في عقائدها، وتسللها إلى النفوس والقلوب والأرواح، وما جعل للسيف موضعًا فيه ثأرٌ أو انتقامٌ أو نُعْرَةٌ جاهليةٌ، بل ينحاز دومًا إلى الرحمة..

وهذا صاحبه سيدنا حذيفة لا يطيق الخروج من مكة إلا بميثاق يعطيه المشركين حتى يتركوه يخرج، فيقول:

ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيْل، فأَخَذَنَا كُفَّار قريش، فقالوا: إنكم تريدون مُحَمَّدًا!

قلنا: ما نريده.. ما نريد إلا المدينة.

فأخذوا منا عهد الله وميثاقَه لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينة، ولا نقاتلُ معه.

فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال:

«انصرفا! نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»!

وتلك حربٌ، يسقط فيها أول ما يسقط أخلاق الناس، وتغيب في دوَّامة صليل السيوف وفورة الدم كلُّ قاعدة أخلاقية، غير أن الذي أعاد السيف إلى هذا العالم جنديًّا في ظلال الحق، لا حكمًا يسعى بين الناس بالباطل؛ هو محمد رسول الله ﷺ.

وما رأيت السيفَ خيارًا أوليًّا في حياة رسول الله ﷺ، ولعل هذا من بركات نصر الله تعالى إياه بالرعب؛ صيانةً للأرواح، وردْعًا لشياطين الإنس ممن لا يخضعون إلا رَهَبًا ورَغَبًا!

وما من طريق سوى السيف يكون فيه تعظيم حرمات الله، ونصرة المستضعفين إلا كان النبي ﷺ أسرع الناس إلى سلوكها والرضا بها.

❊ ❊ ❊

ويوم أراد النبي ﷺ وأصحابه العمرة، فجاءه بُدَيْل بن وَرْقاء وأخبره أنهم صادُّوه عن المسجد الحرام فمقاتلوه؛ قال له النبي ﷺ بيانًا فيه الرحمة الهادية، والثبات الفذُّ على الحق:

إنا لم نجىء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإنَّ قريشًا قد نَهكَتْهُم الحرب، وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدةً، ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهَرْ، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإنْ هُمْ أَبَوْا، فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولَيُنْفِذَنَّ الله أمْرَه»!

وهو كلام يشهد أن قائله نبي، تآزرت فيه الرحمة السماوية التي تحرص على الأرواح وترحم الأعداء قبل الأولياء؛ مع الثباتِ الفذِّ الذي لا يُداهِن الشرك، ولايتخلى عن الحق ولو كان وحدَهُ في الكون!

وما من خصم يريد لعدوه راحةً بل يحب رهقه وتعبه حتى يكون قريب المنال، سهلا سائغًا على أكَلَةِ أعمار الناس بسيوفهم وأسلحتهم قديمًا وحديثًا، ولكنه بُعِث رحمةً صبغت السيف صبغةَ الدواء الذي يشفي المرض، ويستأصل الداء، ولا يوغل فيكون طاعونًا يفني الناس ويهدم أعمارهم!

وما اشتد فأغلظ إلا على من قَبُحَ جُرْمه واستفحل شره، فكان في الخلاص من شره أمانٌ الناس، وحِفْظُ حَيَوَاتِهم.

ولقد كان الجِسْرُ الذي يعبر عليه سيفُه ﷺ إلى رقاب أولئك المجرمين العتاة؛ جِسرًا طويلًا من الصبر والإغضاء والاحتمال الذي ليس وراءه إلا الذِّلَّة، ولا تكون منه ذلةٌ أبدًا.

فلم يكن لمن أفحش في طغيانه، وتعرض لأعراض المسلمين، وزاده الحلم عتوا وجبروتًا إلا أن يكون عبرةً، أمثال سلَّام بن أبي الحُقَيْق، وكعب بن الأشرف، وعبدالله بن خَطل، وأبي جهل، وسائر من تعدى كفره إلى الاستهزاء والاعتداء والأذى والتشهير، والخيانة التي بها ذهاب الحياة؛ فلا يُفتن المسلمون فيشتبه عندهم الحلم بالخنوع، والصبر بالذلة!

مع ضربه المثالَ الفذَّ الذي لا يُدرك في الصبر والاحتمال، والحرص على سلامة الدعوة من دَخَن المتربصين!

ولربما كان في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ما يتسع به المعنى فيتجاوز كراهة النفوس القتال لما فيه من ذهاب الروح أو ألم الجسد، ليكون تعبيرًا عما في نفس النبي ﷺ من حبِّ هداية الناس، وكراهة أن يحملوه على حربهم، وفي حياته شواهد هذا المستفيضة:

فبين يدي صلح الحديبية يقول لأصحابه ﷺ:

«والذي نفسي بيده، لا يسألوني خِطَّةً يُعَظِّمُون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتهُم إيَّاها».

وقال أيضًا: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نَهِكَتْهُم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدةً، ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهَرْ، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[1]، وإنْ هُمْ أَبَوْا، فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[2]، ولَيُنْفِذَنَّ الله أمْرَه»!..

ومال في شأن أسرى بدر إلى مشورة الصديق رضي الله عنه وأعرض عن رأي عمر رضي الله عنه القاضي بقتلهم!

وشأن المرء في معاملته أعداءه الذين يتربصون به في واقعته الأولى أن يرهب ويقتل ليثير الفزع.. بينما انحاز رسول الله ﷺ إلى المرحمة، في وقتٍ لم يكن غريبًا من زعماء

(١) يعني استراحوا من عناء الحرب.

(٢) السالفة: صفحة العنق، يعني: ولو بقيت وحدي ليس معي أحد، فسأقاتلهم، ثقة بربه وثباتًا لا يتلوى ﷺ.

الحروب أن يعمل الواحد سيفه في أعدائه قتلا وإذلالا!..

لكنه يدع من ورائه في كل موقفٍ آيةً باقيةً تشهد له بالرسالة والصدق، ﷺ..

بل جعل تمني لقاء العدو منهيًّا عنه فقال: لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموه فسلوا الله التثبيت..

وضرب المثل الناطق بشفقته الرحيمة بالناس فقال:

«مَثَلِي ومَثَلُكم كمَثَلِ رجلٍ أوقدَ نارًا، فجعل الفراش والجَنَادِبُ يقَعْن فيها»، قال: «وهو يَذُبُّهُنَّ عنها»، قال: «وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُم عن النار، وأنتم تَفَلَّتُون من يدي»

وفي يوم فتح مكة عَلَّق الأمان على أمورٍ ميسورةٍ لكل أحد: «من دخل المسجد الحرام فهو آمن..

ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

ومن أغلق عليه دارَهُ فهو آمن»!

فلم يتعنت تعنت الجبابرة، ولم يستذلهم ويسومهم سوء العذاب، ولم تبدر منه كلمة فيها تقريع ولوم وتوبيخ، بل جعل

الأمان سمتًا عامًّا في مكة، وجعل يوم دخوله إياها تاريخًا جديدًا للعفو الفريد!

وإذا حاد السيف عن صراط الرحمة، ولو باسم الدين، قام فردَّه ببيان لا يشتبه، ولو كان الفاعلُ أحدَ قادة الإسلام الكبار كخالد بن الوليد ﵁..

فقد بعثه النبي ﷺ إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، فما أحسنوا يقولون أسلمنا، فقالوا: صبأنا، فقام خالد فيهم قتلًا وأسْرًا، فقدموا على النبي ﷺ فقال أمام العالم، يُسمع التاريخ، ويبقيها ميثاقًا صادقًا في ميدان الحياة:

اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد!

اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد!

يقولها مرتين..

فلم نر منه مداهنةً، أو تسويغًا أو تبريرًا لفعل قائد من كبار قواده!

ولم نر منه اختلاء به في اجتماع خاص، بعيدًا عن أعين الجماهير، فليس يعرف محمدٌ ﷺ أخلاق الغرف المغلقة!

إن أي فلسفةٍ دفاعيةٍ تدافع عن فعل خالد كانت ستكون هدمًا لقواعد الحقيقة التي أرساها محمدٌ ﷺ!

هذا إنسانٌ لا يحابي في أعمار الناس ودمائهم، كما يحابي أولئك الذين بنوا حوائط مجدهم من جماجم الشعوب!

ولا يداهن قادتَه الكبار خشيةَ انقلابهم عليه؛ لأن الميثاق الذي بينه وبينهم ميثاق الحق والصدق، لا ميثاق الزعامة والجبروت!

ويدهشني كثيرًا موقفه ﷺ من موت أحد كبار أعداء الإسلام، رأس المنافقين؛ عبد الله بن أبي ابن سلول!

فإن في إعراضه عنه مع اتساع صحيفته بسواد أعماله؛ دليلًا حيًّا على أنه أبعد الناس عن إغراءات السيف وطموحات المستكبرين في الأرض!

هذا رجلٌ رفَعَ الوحيُ عنه حُجُبَ السَّتْرِ، فكان سِرُّه وما يُخافت به في مجالسه من السب والاستهزاء والمكر والغدر؛ كل ذلك كان علانيةً عند رسول الله ﷺ بخبر الوحي!

يعلم أنه قال: ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ..

وأنه قال: لقد غبَّر علينا ابن أبي كبشةَ ؛ شأن العرب عند تنقُّص رجلٍ بنسبته إلى غير مشهور من أهله!

وعلم أنه خاض في عرض زوجه الصِّدِّيقَة بنت الصديق ؛ أحب الناس إليه!

وعلم أنه كان يميل إلى يهود ويحالفهم ضِدَّه!

فصبر ما لا يصبره أحد، حتى ابن عبد الله بن أبي!

فعن أبي هريرة، قال: مر رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي ابن سلول وهو في ظل أَجَمَةٍ، فقال: قد غَبَّرَ علينا ابن أبي كبشة!

فقال ابنه عبد الله بن عبد الله: والذي أكرمك، والذي أنزل عليك الكتابَ، لئن شئتَ لآتِيَنَّكَ برأسِه!

فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكن بِرَّ أباكَ، وأَحْسِنْ صُحْبَتَه»!

فصبر ما لم يصبر ابنُ عبد الله بن أبيٍّ الذي نبت من دَمِه، ونبع منه!

صَبَرَ صَبْرَ النبوةِ الذي لا يُلحق، وتمَّمَ جمال صبره بالإحسان الذي لا يُدرك!

ويوم أنْ كلَّمه بعض الصحابة في قتل هذا الداء المجسَّد، في مثل ابن أبي، أو نَبْعِ الخوارج الذي قال له: اعدِل؛ فإنك لم تعدِلْ!

فما كان يجيب ذلك إلا إجابتَه التي بقيت على ناصية التاريخ عنوانًا على جلالة قدره:

«لا.. لا يتحدث الناسُ أنَّ مُحَمَّدًا يقْتُلُ أصحابَه»!

لقد كانت العرب تقتل من أجل نظرة عابرة، أو ناقةٍ شاردة، وتثور الحروب بينهم سنين عددًا في الشأن الذي يكون أهون وأقل من هذا كله! فكيف بالعِرْض؟!

نعم! صَبَر صَبْرَ النبوة الذي لا يُلحق، وتمَّم جمال صبره بالإحسان الذي لا يُدرك!

وقد مات الآن عدوه الذي ما تباطأ يومًا عن قالة السوء ونفخ النار في نفوس المسلمين، فما كان منه سوى الإحسان مضاعفًا!

لقد كان سكوته وحدَه عن موته آية إحسان كافيةً في البيان عن جميل خلقه!

وكان يسَعُه أن يجعل أصحابه في جنازته مُعَزِّين مُصَلِّين، وكان هذا فوق الإحسان!

بل أرسل قميصه الخاصَّ ليكون كفنَ عدوه اللدود! وتقدم الصفوف ليُصَلِّي عليه!

هذا شيء غريب جدًّا.. لكنه من محمد رسول الله عظيم جدًّا جدًّا!

هذا صاحبه الفاروق يحكي المشهد الباذخ!

لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول، جاء ابنه إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله أعطني قميصَك أُكَفِّنْه فيه، وصَلِّ عليه، واستَغْفِر له!

فأعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ قميصه، وقال: «إذا فرغتم فآذِنُونِي» فآذَنَه، فلما أراد أن يصلي عليه وثَبْتُ إليه، حتى قمتُ في صدره، فقلتُ: يا رسول الله! أتصلي على عدو الله عبد الله بن أُبَيٍّ، وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟! أُعَدِّدُ عليه قوله!

قال: ورسول الله ـ ﷺ ـ يتبسم! حتى إذا أكثرتُ عليه قال: «أَخِّر عني يا عمر»!

فقلت: يا رسول الله! أتصلي عليه وهو منافق؟! وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟! فقال: «إنما خَيَّرَني الله، فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، فقال: «سأزيده على سبعين»!

بي صمتٌ غارقٌ في البكاء بين يدي هذا الموقف الذي يبس منه الحرف في يدي، فما أحسن الكتابة والبيان، فأي بيانٍ هنا شاحبٌ متهالك لا قيمة له!

يجيب فيعطي الرداء، ولا يُعْرض عن الصلاة عليه وهو من أشد الناس عداءً له، ويلتمس من ابنه إعلامه بوقت صلاتهم عليه، فلا يتباطؤ عن ذلك، ويذهب ومن بين يديه أحد أحب الخلق إليه وهو الفاروق ﵁، فلا يجيبه إلى المنع، فيعدد عليه الفاروق ﵁ قوارص ذلك المجرم، فيتبسم النبي ﷺ!

لا أستطيع مفارقة هذه المفردة في هذا السياق.. «يتبسم»!

هذه المفردة هنا تكتسب معنى آخر غير الابتسام وهو جمال تلك النفس واشتمالها على رحمةٍ لا تنزعج من العفو، ولا تضيق بالصفح، وتُقْبِلُ عليه بغير تكلُّف، وإنما هي الرحمة في تجليها الأجمل!

إن كثيرًا منا متى سمع الكلمة الجارحة، واللفظ الخشن ينال منه أو من أهله، تغير وجهه ولابد!

لكن هذا رجلٌ يصر على الانحياز للرحمة حتى في هيئته وصورة وجهه، ﷺ..

ما سمعت بمثل هذا.. وإن في هذا لبيانًا خاصا عما في نفسه الرحبة من رحمات لا تنتهي!

ثم إن هاهنا شاهدًا آخر من شواهد الرحمة؛ فإن النبي ﷺ أفصح الناس وأعلمهم بمنازل البيان وأساليب الكلام وطرائقه، فهو يعلم أن «السبعين» للتكثير لا لتحديد العدد، لكنه لانحيازه التام لمعاني الرحمة أجرى العدد مجرى الظاهر؛ لأن هذا القلب الذي امتلأ بالرحمة ففاض، يتعلل بكل ما يصله بأسبابها، ولذلك كان يقبل من الناس علانيتهم ويكل سرائرهم إلى ربهم سبحانه وبحمده..

ويصلي عليه، وفي صلاة الجنازة ما فيها من مَعَارِجِ الدعاء والضراعة للميت!

ويُتْبِعُ الصلاةَ استغفارًا ينفي كل شبهة تكلُّفٍ، أو كراهةٍ في هذا الفعل النبوي الجليل!

إن هاهنا لآية نبوة عظيمة تنطق في القلب أن هذا نبي حقا ﷺ.

حتى مَن أهدر دمَه كابنِ أبي السَّرْح، عفا عنه استجابةً لشفاعة صاحبه وحبيبه عثمان رضي الله عنه..

فإن ابن أبي السرح لما علم أن الرسول ﷺ أهدر دمه اختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما دعا رسولُ الله ﷺ الناسَ إلى البيعة؛ جاء به عثمان حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال:

يا رسول الله! بايِعْ عبدَ الله!

فرفع رسول الله - ﷺ - رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كُلَّ ذلك يأبى، ثم بايعه بعد ثلاث!

ثم لما مضى التفت إلى أصحابه ليجدد فيهم عَقْدَ الطاعة لا شهوة القتل، فقال:

«أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتلَه»؟!

فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلَّا أومأتَ إلينا بعينِك؟

فقال كلمة النبوة في جلالها الكبير، وصدقها العظيم، وأمانتها السامقة: «إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنةُ أعين»!

وتلك قصة أخرى تفيض حنانًا عجيبًا..

عن ابن عباس: أن النبي ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم

رجل، فقال لهم: إني لست منهم، عشقتُ امرأةً فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة

ثم اصنعوا بي ما بدا لكم!

فنظروا فإذا امرأة طويلة أدماء، فقال لها: اسلَمِي حُبَيْش، قبل نفاد العيش!

وقال لها شعرًا عذبًا يفيض حبا، ثم قدموه فقتلوه!

فجاءت المرأة فوقفت عليه، فشهقَتْ شهقةً ثم ماتت!

فلما قدموا على رسول الله ﷺ أُخبر بذلك، فقال غاضبًا يهدر بحنانه ورحمته «أما كان فيكم رجل رحيم؟!»

بل في طائر لا يهتم به أحد!

عن عبدِ الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال: كنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ، فانطَلق لحاجتِه، فرأينا حُمَّرةً معها فَرْخَانِ، فأخذْنا فرخَيها، فجاءتِ الحُمَّرة فجعلتْ تفرُشُ، فجاء النبي ـ ﷺ ـ فقال: «من فَجَعَ هذهِ بولَدها؟ رُدُّوا ولدَها إليها»!

بل في نملة لا يلتفت إليها أحد!

يقول عبدالله: ورأى قريةَ نملٍ قد حَرَقْناها، فقال: «من حَرَق هذه؟» قلنا: نحنُ، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا رَبُّ النار»!

ويأتيه السائل ليسأل[1]: مَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ الله؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا، فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ»

أفلو كان من زعماء الحرب، وسماسرة الدم والكذب، أليس سيكون حريصًا على الاستكثار من الجند، لا يبالي بنية الواحد منهم ولا غايته، شأن الذين يبحثون عن سطوة السلطة

(١) الحديث في الصحيحين.

وبذخ الجاه، فيستكثرون من الأجساد ولا يشغل بالَ الواحد منهم عمل قلب من معه، طالما أنه لا يتطلع إلى منازعته السيادةَ والسلطان!

لكن رسول الله ﷺ يجدد في الكون معالم العدل والحق الذي تؤازره الرحمة التي غايتها هداية الإنسان لا هدمه!

إن سيفًا في يد هذه الرحمة أمانٌ للبشرية من طوفان الدماء التي سالت بالسلاح الذي كفر بالإنسان قبل كفره بالله، فتناثرت جثث الملايين[١] في العالم الذي صارت الأبجديةُ فيه القُنبلةَ والرصاصةَ والصاروخَ وأفران الغاز!



(١) عدد الضحايا في الحرب العالمية الثانية وحدها أكثر من أربعين مليونًا، سوى الجرحى والمغتصبات!

اقتراب



كان دفتر حياة ذلك النبي مفتوحًا للكل، ليس فيه سطر مخبوء، أو سرٌّ غائبٌ عن كل من طالع سيرته ﷺ..

فهو الإنسان الوحيد في تاريخ البشرية الذي لا يملك سرًّا، وهو مع ذلك يسبق كلَّ البشر عظمةً وسموًّا حتى عند عقلاء الذين لم يسلموا!

إنسان لا يملك سرا، فلا تزداد له غير الحب والإجلال والإكبار..

زوجاته وهن أخص الناس به، وأهل بيته وهم الذين يطالعونه في جميع حالاته، وأعداؤه الذين يرقبون منه هفوةً أو حرفًا.. كل هؤلاء ما طالعوا منه أو فيه شيئًا فيه نقيصة يعتذر عنها، أو نقصًا يخجل منه!

كل من اقترب منه وجد إنسانًا فريدًا في جمال خَلْقِه وخُلُقِه..

حتى من الحيوانات!

كان ظل السكينة الوارف بالرحمة في صحراء الوجود!

فأوى إليه الطير يشكو، والجمل، وحنَّ إليه الجذع!

كانت الأرض ولا شك مبتهجةً أن في أبناء آدم مثل هذا الإنسان العظيم!

وكان من أعظم ما فيه أنه لا يصوغ الناس صياغة القالب الذي يطبعهم طبعة واحدة تمسح الفروق التي بين الأشخاص في صفاتهم وقدراتهم وطبقاتهم النفسية.

يستثمر أحسن ما يُحسنه الإنسان ليكون فردًا صالحًا، ولا يأمره بمفارقة شيء سوى الشيء الذي لا يكون به إنسانًا.

فاستبقى كل واحد على طبيعته وعمله وكسبه ومعاشه، وأخلى هذا كُلَّه من قوادح العلاقة بالخالق أو العلاقة بالمخلوق!

فالتاجر لم يزل يمارس تجارته، والزارع في حقله يتابع زرعه، والرحالة الضارب في الأرض يتابع سفره لكسب معاشه، والشاعر لم يزل ينسج أشعاره، والنجار في صحبة أخشابه.. لا يحس الواحد منهم عنتًا ومشقة أن صار مسلما!

لقد جاءهم بدينٍ لا يعزلهم عن الحياة ليكونوا رهبانًا متباعدين عن كسب الحلال وفعل الحلال وطلب الحلال.

حياتهم هي هي، لكنها حياةٌ خالية من منغصات الوثنية وكلِّ ما يُجمع العقلاء بأنه منافٍ لكل خلق حميد.

يجلسون فيمزحون ويذكرون الأمر من أمور الجاهلية فيضحكون فيتبسم لهم!

يُنشدون الشعر بين يديه فيسمع ويثني على ما فيه من خير وبلاغة..

يتسابقون بين يديه فينظر ويتبسم..

يكون في الطريق فيرى غلامًا يفعل شيئا على غير الصواب، فيرشده إلى فعله بطريقة صحيحة..

أحب أن تنظر معي في هذه الأحاديث، ثم أحب أن أعلق عليها بعد أن تمر عليها بعينك وعقلك:

عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ مر على غلامٍ يَسلَخُ شاةً، فقال له ـ ﷺ ـ: «تَنَحَّ حتَّى أُرِيَكَ» فأدخَلَ يَدَهُ بين الجلدِ واللَّحمِ، فدَحَسَ بها حتَّى تَوارَت إلى الإبْط، ثمَّ مضى..

وهذا سلمة بن الأكوع يقول وقت رجوعهم المدينة: فلما كان بيننا وبينها قريبا من ضحوة وفي القوم رجل من الأنصار كان لا يُسْبَق جعل ينادي: هل من مسابق؟ ألا رجلٌ يسابق إلى المدينة؟

فأعاد ذلك مرارا وأنا وراء رسول الله ﷺ مُرْدِفِي، قلت له: أما تكرم كريما، ولا تهاب شريفا؟

قال: لا، إلا رسول الله ﷺ.

قال: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي خلني فلأسابق الرجل، قال: «إن شئت»!

قلت: أذهب إليك، فطفر عن راحلته، وثنيت رجلي فطفرت عن الناقة، ثم إني ربطت عليها شَرَفًا أو شَرَفَيْن، يعني استبقيت نفسي، ثم إني عدوت حتى ألحقه فأصك بين كتفيه بيدي، قلت: سبقتك والله، أو كلمة نحوها، قال: فضحك وقال: إن أظن، حتى قدمنا المدينة.

حياتهم سائرةٌ في يسر ليس فيه غلو..

يعيش بينهم، ولا يحاصرهم بالتكاليف، ولا يرصد خطوات

حياتهم ويضيق عليهم أنفاسهم..

فيتزوج الواحد منهم ولا يعلم النبي ﷺ إلا بعد زواجه..

يدخل عليه عبدالرحمن بن عوف صاحبه، فيجد فيه آثار زواج جديد..

ويكون راجعا فيجد صاحبه جابرًا يريد السبق إلى البيت فيسأله عن سر ذلك، فيخبره جابر أن سبب ذلك أنه حديث عهدٍ بعُرس!

هكذا تمضي حياتهم سهلةً هينةً بلا تعقيد..

كان رحمةً حقيقية..

لا يعامل الناس بميزان التراب والمال والدنيا.. بل كان أقربَ الناس إلى مسكين أو فقير!

تأتيه ابنته فاطمة تسأله عونًا بخادم يكفيها هم التعب والخدمة في البيت فقد طحنت حتى أثرت الرحا في يدها.. فيعتذر عن هذا لأن هنالك فقراء من أهل الصُّفَّة يجلسون جائعين، وليس يصح في ميزانه العلوي أن يهنأ بيته وفي المسلمين من يتألم!

يكون ماشيًا في السوق فيجد صاحبه زاهرًا، فيحتضنه ويضع

يده على عيني زاهر وهو يقف خلفه، يلاطفه، ويصيح مازحًا:

من يشتري هذا العبد؟!

فيعرفه زاهر بحنانه ورحمته، فيقول:

تجدني يا رسول الله كاسدًا!

فيقول له: بل أنت عند الله غالٍ!

يسأله الرجل من أصحابه قضاء شيء له، فيجيبه ولو كان فقيرًا ضعيفًا أو عجوزًا كبيرة..

عن أنس بن مالك، أن جدته مليكة دعت النبي ﷺ لطعام صنعته له، قال: فأكل، ثم قال: «قوموا فلأصلي لكم» قال: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لُبِسَ، فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ، وصففتُ أنا واليتيم وراءه، والعجوز وراءنا، فصلى لنا ركعتين، ثم انصرف.

ويجيب الدعوة إلى طعام ولو كان دهنا متغير الرائحة من طول مكثه!

يقول خادمه أنس: إن خيَّاطًا دعا النبي ﷺ إلى طعام، فأتاه

بطعام وقد جعله بإهالة سنخة وقرع. «فرأيت النبي ﷺ، يَتْبَع القَرعَ من الصَّحْفَة»، قال أنس: «فما زلت يعجبني القرع منذ رأيت رسول الله ﷺ يعجبه».

يتجاوب مع الناس ويتبسط لهم، ولا يشعرهم أنه بعيد عنهم..

يناديه الرجل بصوت جهوري، وهم ممنوعون من رفع الصوت فوق صوته، فلا يغضب عليه، ويرحمه ويتنزل له..

يقول صفوان بن عسال المرادي: بينا نحن معه في مسير فناداه أعرابي بصوت جهوري: يا محمد، فأجابه على نحو من كلامه. قال: هاؤم.

قلنا: ويلَك! اغضُضْ من صوتك؛ فإنك قد نُهِيتَ عن ذلك. فأبى الرجل عليهم وسأل النبي ﷺ: أرأيت رجلًا أحب قومًا ولم يلْحَقْ بهم؟

فأجابه: «هو يوم القيامة مع من أحب»!

إن العُسْرَ منفي عن خلقه وحياته، وتعامله مع الناس، وتعليمه لهم:

عن معاوية بن الحكم السلَمي، قال: صلَّيتُ مع رسول الله

ـ ﷺ ـ، فعطس رجل من القوم فقلتُ: يرحَمُك الله ، فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّياه! ما شأنُكم تنظرون إليَّ ؟!

قال: فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فعرفتُ أنهم يُصَمِّتوني .

فلما رأيتُهم يُسكِّتوني سكتُّ ، فلما صلَى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأبي وأمي ـ ما ضربني ولا كَهَرني ولا سبَّني ، ثم قال: «إن هذه الصلاة لا يحلُّ فيها شيءٌ من كلام الناس هذا ، إنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآن» .

ويبول الأعرابي في مسجده . . فانظر ماذا فعل:

عن أنس بن مالك قال: جاء أعرابي فبالَ في طائفةِ المسجد ، فزجره الناس ، فنهاهم النبي ـ ﷺ ـ فقال: «دعوه! لا تزرموه» ، فلما قضى بوله أمر النبي ـ ﷺ ـ بدلوٍ من ماءٍ فصَبَّ عليه!

هذه السكينة لا تكون إلا في النفوس العظيمة ، فلقد يكون الإنسان هادئ الخصال مع جماعة من الناس ، سيئًا مع غيرهم ، بينما ذلك الثبات الأخلاقي الفياض بالسكينة لا يكون إلا في

نفسٍ اتسعت آماد الرحمة فيها، فكانت نبعا لكل خير وجمال!

وأنت ترى ذلك مع الذين من عادة الإنسان التغير معهم، كالخادم..

فماذا عن شهادة الخادم الذي اقترب منه في سره وعلانيته عشر سنوات؟

عن أنسٍ، قال: خدمتُ النبي - ﷺ - عشرَ سِنين بالمدينةِ، وأنا غلام

ليس كل أمري كما يشتهي صَاحِبي أن أكونَ عليه، ما قال لي فيها أفٍّ قطُّ، وما قال لي: لِمَ فعلتَ هذا؟ ألاَّ فعلتَ هذا!

فهو يعترف أن أمره لم يكن كله على ما يجب عليه، ولكن ما كان من النبي ﷺ شيءٌ قط من الضجر والتأفف، ولا الإثقال عليه! ليس سنة ولا سنتين ولا ثلاثا.. بل عشر سنوات كاملة!

جاء مصادمًا للعسر في كل صوره، فنفى العسر في السلوك والعبادة والاعتقاد:

فقد بلغه أن أصحابا له تعاهدوا فيما بينهم على التشديد

على أنفسهم، فقال واحد:

أنا أصوم ولا أفطر..

وقال الثاني: أنا أقوم الليل ولا أنام..

وقال الثالث: لا أتزوج النساء..

فغضب من ذلك وشدد في الإنكار عليه.. وقال: أما والله؛ إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى؛ فليس مني!

ومر بشيخ كبير يهادى بين ابنيه، قال: فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر يا رسول الله أن يمشي، قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»، فأمره أن يركب، فركب!

يقول أبو هريرة ﵁:

خطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»

فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟

فسكت حتى قالها ثلاثا!

فقال بلسان المرحمة: لو قلت: نعم لوجبت ولما استطعتم! ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء ـ فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا!

وكان لا يُخيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا! فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس عنه!

لم يجعل من الإسلام صخرةً يابسةً يحملها الإنسانُ في دروب حياته ثقيلةً قاسيةً، وما جعل الطريق إلى الله تعالى موحشًا تتناثر فيه أشواك التشديد والعنت، ولو كان المقبل إلى الإسلام مغموسًا في سواد الإثم!

هذا رجل يأتي كبير السن، يحمل في قلبه لوعة الندم على أوراق عمره التي احترقت في سعير المخالفات، متشوقًا إلى أنفاس الرحمة تبل قلبه بالحياة بعد أن نشف حلقه وجفت روحه من خوف العقاب!

كلما قلب دفاتر عمره وجد سواد الإثم يلوح له من بين السطور، فما من معصية كبيرةٍ أو صغيرةٍ إلا ركبها جريئًا لا يبالي!

ومضى العمر ولم يبق له إلا أنفاسٌ صغيرة إن لم تجد الأمل فنيت وماتت!

ثم أقبل فسأل النبي ﷺ وقد اشتعل فيه الخوف:

أرأيت رجلًا عمل الذنوب كُلَّها ولم يُشْركْ بالله شيئًا، ومع ذلك لم يترك حاجَّةً ولا داجَّةً إلا اقتطعها بيمينه، فهل لذلك من توبة؟!

قال: «هل أسلمت»؟

قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسول الله.

فقال: «نعم! ليفعل الخيرات، ويترك الشرك، يجعلهن خيراتٍ كُلَّهن».

قال: وغدراتي وفجراتي؟

قال: «نعم؛ فإن الله أكبر»

فمضى الرجل وقد طفئ الخوف في نفسه وانهمر مطر الأمل على قلبه القاحل ونفسه المستوحشة، وانطلق يكبر، فما زال يكبر حتى توارى!

يجعل الدين محببا للنفوس، ولا يبقي عقد الماضي وأثقاله ورواسبه في إناء النفس، فيستقبل الحياة إنسانًا سويًّا لا تصطرع فيه نوازع النفس في أطلال الماضي القديم!

يأتي عمرو بن العاص، ويهم بمد يده بالإسلام ثم يقبضها ويقول: لا أبايعك يا رسول الله حتى تغفر لي ما تقدم من ذنبي..

قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «يا عمرو! أما علمتَ أن الهجرةَ تَجُبُّ ما قبلها من الذنوب، يا عمرُو! أما علمتَ أن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله من الذنوب»؟!

هكذا بيسر لا تعقيد فيه ولا إعنات ولا مشقة..

ثم هو يعيش معهم عيشتهم، يطْعَمُ طعامهَم، ويجوع معهم، ويحفر معهم إذا حفروا، ويعود مريضهم، ويشاركهم أحزانهم وأفراحهم، ويسبق إلى طمأنتهم ويسعى في مصالحهم، ويشفع لهم ولو كان الذي يشفع عنده مولى من الموالي الذين لم يكن لهم مكانة ولا وزن في جزيرة العرب!

لقد حفر معهم يوم الخندق حتى وارى التراب صدره..

وقام بنقل حجارة المسجد معهم..

ويفزع الناس في المدينة ليلةً من الليالي، فيقول أنس ﷺ:

كان أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلقوا قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله - ﷺ - وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ، ما عليه سَرْجٌ، في عنقه السيف، وهو يقول: «يا أيها الناس، لن تراعوا» يَرُدُّهم.. ثم قال للفرس: «وجدناه بحرا» أو: «إنه لبحر».

والإنسان العظيم لا تكون عظمته في عزلته عن الناس؛ لأن الحياة ومن فيها مجال حقيقي لاختبار حقيقة تلك العظمة.

وهكذا كان رسول الله ﷺ.. يغشى الأسواق ويمشي في الناس، ولا ترى الحياة منه إلا العظمة الكبرى في أبسط صورها، وأحبها إلى النفس.

وهذا شيء يدعو للدهشة!

لقد كان موصولا بحياة الناس ودنياهم في كل تفاصيلها، ومع ذلك لم يشهد التاريخ نظيرا لهذا الإنسان في أخلاقه مع الناس، وزهده في الدنيا وعبادته لربه..

إن رجلا يقوم بأعباء الرسالة، ومكابدة أثقالها وهمومها وتحدياتها، هو هو ذلك الرجل الذي يقوم برعاية تسعة بيوتات بما فيها من أهل وحياة وخلافات، هو هو الرجل الذي يتنزل مع الصبيان ويتفقد المساكين ويقف للجارية الصغيرة ويمشي معها في طرقات المدينة، هو هو الرجل الذي يقف في محراب الليل ويضيء قنديل العبادة حبا وشوقا لربه وبكاء بين يديه حتى تنفطر قدماه، هو هو الرجل الذي لا يغدر بعدو، ولا ينقض عهدا ولا يهتك سترا، ولا يداهن في حق، ولا يُسالِمُ باطلًا، هو هو الرجل الذي تتسع رحمته لتنال العصفور والشجر والحجر والجماد، هو هو الرجل الذي لا يسأل الناس شيئا من دنياهم ولا من أموالهم، هو هو الرجل الذي يحب التماس الرحمة بالناس، ويتوسل إلى ربه ليلا طويلا يقول أمتي أمتي.. هذا الرجل لا أملك إلا حبه، والخضوع لعظمته، والإقرار بالبداهة العقلية والروحية والنفسية والقلبية أنه ليس بشرا عاديا، وأنه رسول الله قطعا بلا ريب..



خاتمة خاصّة



دعني أتنفس بقلمي قليلا هاهنا؛ فإن لهذا الحديث سرًّا جليلًا أحاول إدناءه منك واختصاره لك..

لقد كان من أجل شواهد صدق هذا الإنسان ما تراه في حياته من بوارق الحب وخفقات الشوق لله ﷻ..

ومن يتتبع حياة الرسول ﷺ يجد حركاته وسكناته وخلجات نفسه وأنفاسه كلها ناطقةً بالحب!

ذلك الحب الذي لا يخرج إلا من مشكاة الصدق، ولا ينبع إلا من حبة القلب، فهو يتقدم أفعال صاحبه ويصيح بين يديه: إن هذا لعبدٌ لربه، متشوق إلى مرضاته، مخبت القلب، فارغ النفس من نوازع التراب ونزغات المادة، واللهث خلف سراب الشهوات الآسنة!

حتى في الأمر العابر والموقف الصغير.. تجد عنوان العبودية

قائما بين يديك دالًّا على ما في ذلك القلب الشريف من الحب الأسمى، والمعرفة العظمى بالله ﷻ!

هاهو يُبصر المطر نازلا من السماء فيكشف عاتقه ويقول بلسان المحب شوقا لربه: إنه حديث عهدٍ بربه!

ويتنزل عليه الوحي مخبرا بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلا يركن إلى الدعة، ولا يجلس على بساط الخمول، ويقوم الليلَ طويلًا طويلًا على قدم الشوق والحب حتى ينال الوصَبُ من جسده فتتشقق قدماه.. فيقال له، فيقول بلسان المحب: أفلا أكون عبدًا شكورا!

حتى إذا أقعده التعب صلى جالسًا، وإذا فاته وِرده قضاه ولو كان فوات ورده لقيامه بمصالح الناس وهموم الدعوة.. هذا محبٌّ لا يصبر عن عبادة ربه والله!

ولقد كان يهرول ويسبق في ميادين العبادة سبقًا علويا، حتى إنه ليديم الوصال صائمًا عن الدنيا وشهواتها من الطعام والشراب والنساء، فيستأذنه أصحابُه في أن يواصلوا مثله، فيقول بيانًا كُلُّه حبٌّ: إني أَبِيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني!

يالمبيت ذلك السيد المحب! يَطْعَمُ بوصاله من المعارف واللطائف والتحف والهدايا الإلَهية ما يغنيه عن طعام الدنيا وشرابها!

إن هذه الأنفاس النورانية لا تتهادى إلا في صدرٍ عامرٍ بالصدق والحب!

ولقد علم ربُّه تعالى حب عبده محمد ﷺ، فكان يُسَلِّيه بوصاله! ويمسح الهم عن قلبه بمناجاته!

أفلا ترى كيف يداوي حزنه بالسجود وكيف يمسح عنه الآلام بالتسبيح، فيقول: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين.

أليس هذا كله بالله عليك ناطقًا بالحب العظيم الذي سكن قلبه الشريف ﷺ؟!

والله لا يُسلَّى بهذا إلا قلبٌ أحب ربه حبًّا ملك عليه كُلَّ ذرَّاتِه!

قلبٌ يرى الحياة كلها نصبًا والراحة في سجدة الوصال، فينادي صاحبه بلالًا نداء الحب: أرحنا بها يا بلال!

راحة القلب وسُكنى الروح وموئل الطمأنينة: بين يدي ربي الودود!

وكم تناثر في الأحاديث أنه ﷺ كان يسجد فيطيل حتى يظن الصحابة أنه قد قُبِض ﷺ.. وما به سوى مناجاته ربه!

انظر إليه يأتيه سبطه سيدنا الحسن طفلا صغيرا فيصعد ظهر جدِّه ﷺ ، فيتركه ويطيل السجود ويطيل.. حتى يظن الصحابة به شيئا..

فيعلل ذلك بقوله: إن ابني ارتحلني(١) فكرهت أن أُعْجِله!

والناس يديرون هذا الحديث في فلك الرحمة وصدقوا.. ولكن قَصَّرُوا..

فالمحب يتعلل بكل سببٍ مُوصِلٍ إلى ربِّه! قد وجد في اعتلاء حفيده ظهرَه سببًا لزيادة النجوى والسقيا من كوثر السجود!

إنه ليحب الصلاة ويحب المناجاة ويحب الذكر! حتى إن الحصى ليُسَبِّح في يده الشريفة ﷺ!

---

(١) يعني صعد على ظهري.

إن في مذهب الحب بيانًا لا يتلعثم، وحرفًا لا يكذب أن هذا العبد نبي الله حقا، ورحمته إلى خلقه صدقًا، نطق بذلك كل شيء فيه: خلقه وكلامه وسمته وشمائله وصفاته ومواقفه وهديه وسمته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

كلما تدبرتُ حديثك سيدي: «إنما أنا عَبدٌ»، لَهِجَ لساني بالصلاة والسلام عليك، ما أعظمك! وما أرفع قدرك إذ سموتَ إلى سُدَّة العز بعبوديتك وصفاتك الخِماص من الدنيا.. كم يشْقَى الإنسانُ بالبُعْد عنك، والنأيِ عن تدَبُّر سيرتك، والانغماس في زخارف الضلال المتأنِّقة بزينة الحضارة! أو المتسترة برداء الرقيِّ!! رحيمٌ أنت يا سيدي، تستأذن الشجرة الخضراء لتَشرف بالسلام عليك! وتهرول السحابة لتُظَلِّلَك!، وتأوي إليك الحُمَّرةُ المسكينة؛ تَبُثُّك حديثَ الشكوى وأنَّاتِ الفقد، فتهدهد أحزانها وتُرجِع إليها أفراخها! وهمهم الجذع حنينًا فمسحت عليه بيدك المباركة!

هل فهمت العجماوات، والجمادات ما ضل عنه كثير من الذين يملكون جماجِمَ تُحْسَبُ على العقول؟! وكم هي تعاسة البشرية حين حسبت أنها تكون بغير هديك، وتحيى بغير نورك!

أي عبدٍ أنتَ ؟! أأنت سيدي تنشر دينَك بالسَّيفِ ؟! وتجبر أحدًا على الإسلام ؟! ويُلتَمسُ الخير في غير شريعتك ؟! فإن لم تكن أنتَ الإنسانَ فمَن ؟! وإن لم يكن دينُك الحقَّ فماذا ؟! وإن لم تكن شريعتُك العدلَ فأين ؟!

❊ ❊ ❊

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد..

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

والحمد لله رب العالمين

تم الفراغ منه مراجعةً وتحريرًا ونظرًا
ظهر الثلاثاء، الخامس عشر من ذي القعدة ١٤٣٨هـ،
الموافق: الثامن من أغسطس لعام ٢٠١٧م.




فهرس

الموضوع	الصفحة

